الفصل الرابع

أين ما يدخل الشيطان فى التفاصيل؟

منذ أربعين سنة مضت، كتب البروفيسور الراحل ويلفرد كانتويل سميث ـ الذى شغل منصب رئيس مركز هارفارد لدراسة الديانات العالمية لعقد من الزمان ـ عن حاجتنا إلى تنقيح استخدامنا لكلمة دين، حيث نجم العديد من الصراعات بسبب الطرق العميقة التى تغير بها مفهومنا لهذا المصطلح[1].

تعنى كلمة الإسلام فى القرآن ـ كما شاهدنا ـ «الخضوع»، كما كان يروق للبروفيسور سميث القول بأن كلمات اليهودية والإسلام والنصرانية كلها فى الحقيقة أفعال وليست أسماء؛ وأوضح ذلك قائلاً: «إن الإسلام اسم فعل: فهو اسم لفعل وليس اسمًا لمؤسسة؛ اسم لقرار شخصى وليس لنظام اجتماعى[2]؛ وذكر أن كلمة «إسلامكم» فى الآية القرآنية [الحجرات: ١٧] حيث يأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه بأن يقول للأعراب: ﴿ **لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ** ﴾ تعنى «التزامكم الشخصى بالامتثال لكلمات الله».

يحتل الفعل فى اللغات السامية (واللغة اليابانية الكلاسيكية) المرتبة الأولى، حيث تبدأ دراسة العربية ـ التى تعد واحدة من اللغات السامية ـ بدراسة الأفعال وأنواعها؛ حتى أن الصفات فى اللغة العربية تعتبر نوعًا من أنواع الأفعال؛ لأنها تصف الطريقة التى «يعمل» بها الاسم أو «يظهر» بها للرائى؛ مثل الأحمر أو الأخضر. فى حين أن اللغات الأوروبية الهندية وبخاصة اليونانية تعطى الاسم مرتبة أعلى بكثير، «ولذلك ومنذ ذلك الحين يميل **الفكر الغربى لتصور كلمة حقيقة على أنها كيانات، بينما يتم**

تصورها فى العهد القديم على أنها أحداث فى المقام الأول»[٣] (استخدام الأحرف السوداء من إضافتى)».

إذا ما قمنا الآن بتفسير كلمة إسلام الواردة فى الآية ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، على أنها التزام شخصى فإننا سنفهم «بكل تأكيد أن الدين عند الله هو فعل شخصى: خضوع [الإنسان] لله سبحانه وتعالى»، وأوضح سميث أن هذه الترجمة «مطابقة فعليّا» لتعريف الدين فى الموسوعة الكاثوليكية: «الدين..... هو إخضاع النفس طواعية لله»[٤]، ويردد هذا التعريف الموجود بالموسوعة الكاثوليكية عند ترجمته إلى العربية أصداء ما جاءت به الآية القرآنية! تخيل الآن شخصًا عربيّا معاصرًا وهو يمحص هذه الترجمة العربية فى القاهرة ويقرأ التعريف بأن «الدين هو الإسلام لله»، فلربما يقول: «الحمد لله لقد تجلى للكاثوليك نور الإسلام».

عندما نفسر استخدام القرآن لكلمة الإسلام لتعنى «نظامًا دينيّا» بدلاً من «فعل شخصى»، فإن المعنى سيصبح أكثر طائفية ومثيرًا للشقاق؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥]، فإذا كان المعنى المقصود هنا هو أن الله لن يقبل أى عمل دينى يتم أداؤه بدون الخضوع لله، فإن أى يهودى أو مسيحى تقى سوف يقبل ذلك. لكن إذا ما تم تفسيره ـ تفسيرًا خاطئًا كما يفعل كثيرون حاليًا لتعنى ومن يبتغ غير النظام الدينى للإسلام فلن يقبل منه، فسوف يصبح للآية معان ضمنية طائفية تتنافى مع المعنى الجلى لآيات قرآنية مثل الآيات (البقرة: ٦٢) و(المائدة: ٦٩) التى تقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾. لذا يمثل تعريف الإسلام بأنه نظام دينى بدلاً من أنه خضوع تام أمرًا خطيرًا، كما أنه قد غذى الشعور بالاستعلاء للدين الإسلامى، وأوقد تشدد الجماعات المسلحة الإسلامية الحديثة، وأوقد نار العنف الطائفى.

وأفاد سميث أن استخدام مصطلحات مثل اليهودية والمسيحية والإسلام للإشارة إلى نظام المعتقدات والشعائر ـ لديانة تاريخية مؤسسية ـ هو استخدام حديث لم يظهر إلا فى القرن السابع عشر. وبدأ ولم يرسخ إلا فى القرن التاسع عشر؛ ومن خلال

دراسته لعناوين الكتب الإسلامية على مرّ القرون، لاحظ سميث أنه «منذ الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر كان هناك تحول كامل بل ومفاجئ على نحو واضح لاستخدام مصطلح الإسلام كاسم لدين»[٥]. وتتمثل المأساة فى أن نماذج الفكر الخاصة بالمسلمين أنفسهم ـ إطار المفاهيم لديهم ـ كانت قد تشكلت على يد الغرب، وفى هذه الحالة وقع الضر عليهما معًا.

يشير سميث إلى أن هذا حدث نتيجة لأن العلماء الأوروبيين الذين جالوا عبر بقاع شاسعة من العالم فى إطار دراساتهم للممارسات الدينية الأخرى، ويشبههم «بالذباب الذى يحتشد حول إناء به سمكة ذهبية يراقبها وهى فى الداخل بشكل كامل ودقيق، ويقيسون حراشيفها بمنتهى الدقة. وهم بالفعل يساهمون فى المعرفة بالموضوع، لكنهم لا يسألون أنفسهم أبدًا، ولا يكتشفون مطلقًا، ما هو شعور المرء إن وضع نفسه موضع هذه السمكة الذهبية»[٦]. وإننى كمسلم، أشعر بالامتنان للبروفيسور سميث لشرحه بالضبط الشعور الذى خلقه المستشرقون لديهم، حيث يعاملون المسلمين كتحف بيولوچية محفوظة فى مادة كلوريد التريثلين، ولقد أفضى عمل هؤلاء العلماء الذى دعمته قيم التنوير الغربية إلى تصور للأديان باعتبارها نظمًا عقائدية لا روح لها، بدلا من أنها أعمال نابعة من تقوى البشر.

أود أن أضيف إلى فرضية سميث أن هذا الاستخدام يعتبر أحد النواتج الثانوية المؤسفة لابتكار الشركات الذى خلق «أشخاصًا» اعتباريين؛ ففى نفس الوقت الذى كان يمر فيه استخدام كلمة «الدين» بتغيير، كانت المدن تتحول لشركات الاستثمار، وأصبح الدين، الذى كان يشير فيما سبق إلى العمل بمقتضى التقوى، معروفًا باعتباره هوية. ومن ثم تغير الدين من شىء «كنت تفعله» إلى شىء «أصبح هويتك»، فبدلاً من امتلاكك لدينك (بكونه عملاً تقوم بممارسته) وكونك مسئولاً عنه (كشعائر دينية تقوم بممارستها)، أصبحت أنت منتميًا للدين الذى تعتنقه وأصبح الدين شيئًا يتملكك؛ وتجرى مجموعة كاملة من التغيرات النفسية الدقيقة بين الناس والدين، وأصبح الدين بنهاية هذا التغيير «شركة مسجلة» تملك الناس، كما أضحى مسئولاً عنهم على عكس المفترض؛ وهذا هو تأثير اللغة على طريقة تفكيرنا، وبالتالى على كيفية تصرفنا.

ماذا تعنى حقًا كلمة يهودى ومسيحى ومسلم؟

لماذا يدور الحديث كثيراً حول شراك اللغة؟ كما سنرى فيما يلى من هذا الكتاب كيف أن تلك الشراك مثلت أحجار عثرة ضخمة فى طريق فهم المسلمين والغربيين لبعضهم البعض. إحدى الطرق التى أربكت فيها اللغة المسلمين وغير المسلمين وأصابتهم بالحيرة هو ما أسميه بـ «افتراض التماثل» وذلك من خلال استخدام نفس الصفة لوصف أسماء متباينة بشكل كبير على نحو ينطوى ضمنيّا على مجموعة مشتركة من القيم.

فعلى سبيل المثال، ماذا تفيد كلمة أمريكى فى الاستخدامات الآتية: الدين الأمريكى، والقانون الأمريكى، والتاريخ الأمريكى، والدولة الأمريكية، والفن الأمريكى، وفن العمارة الأمريكى، والأثاث الأمريكى، والموضة الأمريكية (أسلوب اللبس والملابس) والنظام المصرفى الأمريكى، والاسم الأمريكى، والطعام الأمريكى؟ وما الذى يمكن أن نقوله عن الجامعات الأجنبية التى تدرس الدراسات الأمريكية والأصولية الدينية الأمريكية والسياسة الخارجية الأمريكية؟ فكيف لنا أن نُعرف المقام المشترك فى كل هذه الأمثلة وهو كلمة «أمريكى»؟

كيف يتسنى لنا أن نفترض بأن هناك معنى متماسكًا لكلمة «إسلامى» فى كلٍّ من المصطلحات الآتية: الدين الإسلامى، والشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى، والدولة الإسلامية، والفن الإسلامى، وفن المعمار الإسلامى، والزى الإسلامى، والاسم الإسلامى، والنظام المصرفى الإسلامى، والغذاء الإسلامى؟ ناهيك عن وجود أقسام للدراسات الإسلامية أو المعرفة الإسلامية أو العلوم الإسلامية فى العديد من الجامعات الغربية؛ فكيف يمكن لنا أن نعرّف كلمة «إسلام» و«إسلامى» بأسلوب متماسك فى كل هذه الأمثلة؟

هل يخبرنا تناول الطعام الأمريكى (مثل شرائح اللحم والبطاطس) أو ارتداء الملابس تبعًا للموضة الأمريكية عن مدى قبول الشخص لمُثل القانون الدستورى الأمريكى؟ ماذا يكشف لنا النظام المصرفى الأمريكى أو السياسة الخارجية عن القيم الأمريكية؟

وبالقياس، هل يأثم المسلم لعدم إقامته فى دولة إسلامية؟ هل تناول الطعام اليهودى يعد عملاً غير إسلامى؟ هل الاحتفال بعيد الشكر وتناول الديك الرومى من المقبول إسلاميّا؟ هل تخالف المرأة تعاليم دينها ما لم تغط رأسها؟ هل من الإثم القيام بعمل مع أحد البنوك؟

يتمثل الخطر الكامن فى المسميات فى حقيقة أنها تتملكنا وليس العكس، وأصبحت القضايا السطحية تعريفًا للقضايا الجوهرية، ومن ثم ينظر غير المسلمين إلى «النزعة القتالية الإسلامية» على أنها أمر ينبع من العقيدة الإسلامية، بدلاً من كونها شيئًا قام به أناس معينون أطلقوا على أنفسهم مسلمين عادة ما يكون لأغراض سياسية. وبالمثل يمكن أن يرتدى المسلمون زيّا إسلاميّا ويتسمون بأسماء إسلامية من أجل إظهار أوراق الاعتماد الإسلامية، وهم لا يدركون متى يقعون فى مخالفة قواعد هامة من قواعد السلوك الأخلاقى الإسلامى، وذلك لجهلهم بالعقيدة والتعاليم والشريعة الإسلامية.

يعتبر استخدام مصطلح **«الإسلاموية»** (Islamism) الجديد للإشارة إلى النزعة إلى القتال المسلح الذى يتم ظاهريّا باسم الإسلام استخدامًا مضرّا بصفة خاصة للغة. حيث إنه يضم الدين الإسلامى إلى الحركات السياسية الحديثة بطريقة تجعل غير المسلمين يعتقدون أن الإسلام نفسه هو منبع النزعة إلى القتال المسلح. فعندما نستخدم اللغة بشكل يخلق علاقات ليس لها وجود فى الحقيقة، فإن النتائج لا تكون مربكة فحسب؛ بل وخطيرة؛ لأن الناس يمكن أن يتصرفوا ـ ويتصرفون بالفعل ـ بناءً على ما يفهمون.

أطلق الرومان على الحواريين الأوائل فى أنطاكيا اسم «مسيحى»، والتى كانت تعنى فى الأصل «يهوديّا (وفيما بعد أى شخص) آمن بمجىء المسيح»، (فوفقًا لهذا التعريف، يعتبر المسلمون أيضًا مسيحيين لاعترافهم بأن يسوع هو المسيح)[٧]. وكما يوضح سميث، فإن أتباع الكنيسة رفضوا هذه التسمية فى البداية ـ لشعورهم بالحرج منها ـ حيث إنها كانت تعنى «شبيهًا بالمسيح» أو «مسيحى ـ Chris ـ ish»[٨]؛ تخيل أن سؤالاً يقول: «هل أنت شبيه باليسوع أم ذو طبيعة المسيح؟ كان يفهم لديهم بما يساوى المفهوم من السؤال «هل أنت مسيحى؟» ولكن بحلول القرن التاسع عشر أصبحت كلمة «مسيحى» يقصد بها بشكل حصرى «ما يتعلق بالمسيحيين أو بمؤسسة المسيحية».

ولقد مرت كلمة «إسلام» بنفس التغيير فى استخدام المسلمين لها حيث استخدم القرآن والنبى ومن عاصره بل والأجيال اللاحقة كلمة «مسلم» لتفيد «شخصًا خاضعًا ومسلمًا، وبناءً على هذا اعتبر المسيحيون واليهود الورعون «مسلمين» ولكن بحلول القرن التاسع عشر صارت كلمة «مسلم» تعنى بشكل حصرى «ما يتعلق بممارسات النبى محمد ﷺ»، ويعتبر هذا الفارق بين المعنى والمدلول ضخمًا.

بم يتعلق الصراع حقًا؟

هل الدين يتسبب فى الصراعات؟ هذه فكرة شائعة وتستحق البحث بشىء من التفصيل.

فى الأساس، دائمًا ما يكون السبب الجذرى للصراع تقريبًا هو فقدان أصل من الأصول، شيئًا ثمينًا له قيمة غالية بالفعل. ويمكن أن يكون هذا الأصل أى شىء - فكرة مثل فقدان الشرف والحق فى تعليم أولادك، المذهب القائل بأن الله هو خالق الكون بدلاً من نظرية التطور، أو ربما يكون شيئًا حقيقيًا وملموسًا مثل ميراثك. وتعتبر معتقداتنا من الأصول التى نعتز بها لأقصى حد، ومن ثم فإن ديننا نظراً لكونه مجموعة فرعية من معتقداتنا، هو أصل نعتز به مثل حريتنا وتحررنا. فربما يغضب الموظف لشعوره بالحرمان من حقه القانونى فى العلاوة، وربما يتخذ الابن إجراءً قانونيًا لاستبعاده من ملكية والديه، وربما قد تحارب البلدان بسبب مياه الزراعة النابعة من نهر على الحدود، وربما يتشاجر رجلان على حب امرأة؛ وتثور ثائرة الناس عندما يشعرون بأن أصلا ثمينًا قد أخذ منهم ظلمًا سواء عن طريق السرقة أو الاستيلاء غير الشرعى أو حتى عندما يشكون فى أنهم دفعوا ما يتجاوز مقابله (كما يحدث عندما يتعجبون قائلين: «لقد سرقنا!).

تعد قضايا السلطة السبب الجذرى الآخر للصراع - من يتحكم فى القرارات - فيمكن أن يختلف زوجان حول لون سجادة جديدة، أو حول المكان الذى سيقضون فيه العطلة، أو حول من يقوم بغسيل الأطباق؛ وبمرور الوقت، قد يؤدى تراكم هذه الخلافات درجة من الحدة تجعل استمرار العلاقة بينهما متعذراً؛ وبينما تعتبر الخلافات حول هذه الأمور التافهة نسبيًا مصدراً للصراع فى العادة، إلا أنها ليست كذلك

بالفعل؛ لأنه عندما يسوى الزوجان هذه الخلافات فعادة ما تأخذهم الدهشة قائلين: «هل كنا نتشاجر بسبب هذا؟».

لقد كانوا يتنازعون فى الحقيقة على السلطة، على من يقرر كل شىء عن كل شىء، فلم ينجم الغضب بصفة خاصة حول اختيار لون السجادة، ولكن حول حق السيطرة على إصدار القرار. وهذا ما يجعلنا ننفجر قائلين: «لا تملِ علىّ ماذا أفعل!» فنحن نتشبث بهذا الحق فى اتخاذ قراراتنا وحتى فى ارتكاب أخطائنا.

يشكل هذان السببان الجذريان وهما: سلطة التحكم فى القرارات، وكيفية توزيع الأصول، السبب الجذرى فى كل الصراعات تقريبًا، وتصير القضايا مقداحًا للعنف إذا ترجمت إلى فقدان للسلطة أو الأصول الملموسة.

بمجرد إثارة الجدل، ينشأ نمط نفسى نبحث فيه عما يفرقنا عن الطرف الآخر، وغالبًا ما ينسب الصراع إلى هذا الاختلاف خطأ، وبالتالى يسهم فى النظر إلى خصومنا على أنهم يمثلون «الآخرية» ويغذى إحساسنا بسلامة قضيتنا. ولذا إذا كان الخلاف بين رجل وامرأة، فإننا نندفع فى غضبنا بقول إن: «النساء! عاطفيات للغاية!» أو نقول: «الرجال! وحوش بلا إحساس!» وهكذا نرجع السبب إلى الاختلاف فى نوع الجنس، وعندما يحين الوقت تندلع حرب بين نوعى الجنسين، وتمر الأجيال بينما تؤلف كتب عن كيف أن الرجال من كوكب المريخ وأن النساء من كوكب الزهرة؛ وحيث إننا لا نستطيع العيش معهم أو بدونهم؛ فقد تم التوصل إلى حل وسط بينهما بمقتضاه تكون للنساء الهيمنة على مجالات معينة للحياة، وللرجال السيطرة على غيرها.

وإذا كان الاختلاف نابعًا من لون البشرة والعرق، فإننا نعزو سبب الخلاف لهذا الاختلاف، وينشأ صراع اثنى أو عرقى عاجلاً أو آجلاً؛ أما إذا كان الخلاف فى الدين فسوف نعانى من صراع دينى. وبعد جيل أو اثنين، نعلم الناس أن يفكروا فى هذه الاختلافات بطريقة تجعلهم يعتقدون على نحو صادق أن النساء غير قادرات على الحصول على التعليم العالى، ناهيك عن أن يصبحن قادة، وأن دراسة النساء للعلوم البحتة سوف تفسد عقولهن، وأن العرب أو المسلمين «ليس بمقدورهم أن يتعاملوا مع الديمقراطية»، وأن العرب واليهود كرهوا بعضهم البعض منذ عهد إسماعيل وإسحاق، وأن الهندوس دائمًا ما يكنون الكراهية للمسلمين، وأن المسلمين السنة

والشيعة لا يمكنهم التصالح مطلقًا، وأن السود أدنى من البيض، وأن أهل الشمال أرفع منزلة من أهل الجنوب، وأن سكان المدينة أفضل من سكان الضواحى، وتستمر قائمة الأحكام المسبقة؛ وفى وقت من الأوقات تصير هذه الخلافات معتقدات راسخة الجذور تستمر فى تغذية الصراع، وربما تستغرق أجيالاً لتصحيحها.

تعتبر هذه الصفات التى استخدمت تاريخيًا لمنع جماعات من الناس من المشاركة فى السلطة وفى الأصول الاقتصادية فى الحقيقة أسبابًا ثانوية، وبالأصح ينبغى النظر إليها على أنها مسميات للهوية يمكن أن نجدها مفيدة فى وصف الآخرين فى أى صراع معين؛ يمكننا أن نبتكر أى عدد من تلك المسميات، بما فيها ما يتعلق بنوع الجنس ولون البشرة والنسب للقبيلة أو الطبقة أو العائلة، وبالطبع الدين. ويعد ما نطلق عليه فى الولايات المتحدة «السقف الزجاجى» مثلاً للتفرقة القائمة عل نوع الجنس، كما أن المذابح التى تقع بين قبائل الهوتو والتوتسى فى رواندا مثال للصراع القبَلى، وتدور التوترات فى الهند حول الدين والتمايز الطائفى (الطبقى) (داخل الديانة الهنَدوسية)، بينما تمثل الاضطرابات الأيرلندية صراعًا بين الجماعات الفرعية من ديانة واحدة (البروتستانت ضد الكاثوليك). إن كلاّ من هذه الاختلافات ليس هو السبب الجذرى للصراع، ولكنها تلك المسميات للهوية التى استخدمت للتفريق بين جماعة وأخرى فيما يتعلق بالسببين الجذريين الحقيقيين للصراع ألا وهما السلطة والاقتصاد.

لإقامة الدليل على أن الدين ليس السبب الجذرى للصراع، ادرس اللاهوت الكاثوليكى والبروتستانتى، وسوف تأسى لاكتشاف سبب الصراع فى مدينة بلفاست؛ وعلاوة على ذلك، تمكن كلٌّ من الحبر الأكبر الإسرائيلى ومفتى مصر ورئيس أساقفة وستمنيستر من الاتفاق فى يناير ٢٠٠٢ على إعلان الإسكندرية المشترك الذى يدعو إلى السلام بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، ولكن ذلك لم يجد شيئًا تجاه تقليل ضريبة الموت الناجمة عن الصراع العربى الإسرائيلى. وجمع مؤتمر الأمم المتحدة لقمة الألفية ما يزيد على ألف ممثل للأديان أصدروا بيانات رسمية نبيلة وصادقة عن الحاجة إلى تحقيق السلام بين الديانات، ولكن دعوتهم لم يكن لها تأثير على ما يحدث فى فلسطين أو على التوتر النووى بين الهند وباكستان؛ وذلك لافتقار الزعماء الدينيين لطرق معالجة قضايا السلطة والاقتصاد.

كانت جماعة طالبان يعتبرون أنفسهم مسلمين مخلصين صالحين. كذلك يرى الپاكستانيون أنفسهم مسلمين صادقين، كما يعتبر الإيرانيون أنفسهم مسلمين ورعين، ومع ذلك، قتلت حركة طالبان العديد من الشيعة، كذا تعرض الشيعة لهجوم فى پاكستان؛ ولا تتعلق هذه الصراعات بالتعاليم والمبادئ العقائدية بقدر ما تتعلق بالتعدى الحقيقى أو المحسوس على الأصول.

عندما يستمر أى صراع لأعوام، ينزع الناس فى نسيان مصدره الحقيقى ويعزونه بدلاً من ذلك إلى أسباب ثانوية للخلاف؛ لذا يعتقد الأيرلنديون أن الكاثوليك والپروتستانت قد طبعوا على العنف تجاه بعضهم البعض، كما يتربى اليهود والعرب على الشعور بأن عداوتهم لبعضهم البعض شىء متأصل فى يهوديتهم وعروبتهم؛ كذا يعتقد العديد من الشيعة والسنة بأن قتال بعضهم البعض أمر مقدر. والواقع أن هذه الخلافات ليست سوى مسميات ثانوية لتعيين هوية الآخر التى تعلمنا أن نجعل منه شيطانًا.

بل إن ما يجعل سوء الفهم هذا أكثر ضرراً هو أنه ليس من الصعب العثور على أسباب للصراع ترجع إلى زمن بعيد فى التاريخ، فمن السهل أن نجد وقائع حدثت على عهد النبى ﷺ أو آيات من القرآن أو شواهد من التوراة تبرر الرأى القائل بأن اليهود والمسلمين لا بد أن يكونوا أعداء. وفى هذه العملية يتم بصورة ثابتة تجاهل وتناسى القرون التى شهدت علاقات دافئة أثبتت النقيض.

بناءً على ملاحظاتى عن الصراع، فإننى أرفض نظرية أن الدين هو السبب الجذرى للكثير من الصراعات. لكنه ـ بالطبع ـ أحد العديد من أسباب التفجير أو من الأسباب الثانوية للصراع، كما أنه سريع التقلب، لكنه نادراً ما يكون السبب الجذرى أو الرئيسى للصراع. وبالأحرى ـ وكما أوضحت سابقًا ـ فإن الصراع العنيف يتعلق فى الغالب دائمًا بالظلم المتصور فى توزيع السلطة والأصول.

فالصراع الإسلامى الهندوسى القائم اليوم بين الهند وپاكستان أشعله فى الأصل النزاع حول من يملك كشمير (التى تعتبر مورداً اقتصاديّا)، فى حين نبع الصراع الذى

أدى إلى فصل الهند إلى الهند وپاكستان من الخوف من وجود تباين بين الهنود والمسلمين فى هيكل الحكم (أى أنه نزاع حول السلطة)، وعلى الرغم من أنه تم حل قضية السلطة الأصلية بتقسيم شبه القارة الهندية، إلا أن قضية كشمير (الأصل الاقتصادى) التى لم يتم تسويتها ما زالت تغذى الصراع؛ ومن ثم ففى الوقت الذى تملك فيه الهند وپاكستان أسلحة نووية، موجهة لبعضهما البعض، ليس للهند أسلحة موجهة إلى بنجلادش ـ أو ماليزيا أو مصر أو أى من الدول الأخرى التى غالبية سكانها من المسلمين. كذا ليس لدى بنجلادش، التى كانت فى الأصل جزءًا من تقسيم ١٩٤٨م، والتى كانت تعرف بپاكستان الشرقية، ولا مصر، التى تحظى بعلاقات دپلوماسية ممتازة مع الهند، مطمع فى إقليم كشمير.

لذا يتضح أن الدين ليس هو السبب الجذرى للصراع الإسلامى الهندوسى؛ لأنه لو كان كذلك، لكان للهند علاقة متوترة مع مصر وبنجلادش بالمثل؛ فبإزالة أو معالجة السبب الجذرى وهو السلطة أو الأصول، لن تلبث المسميات الهوية أن تذوى كأساس للعنف؛ وهكذا فبحل قضية كشمير ستكون الهند وپاكستان على الأرجح أكبر شركاء تجاريين لبعضهما البعض.

نشأ الصراع الفلسطينى الإسرائيلى فى الأساس حول توزيع أرض فلسطين (أصل اقتصادى)، فإذا تم حل هذه القضية فسوف تتحسن على الأرجح العلاقات الإسلامية اليهودية؛ (ومن ثم، فإن إسرائيل وفلسطين سيصبحان أكبر شركاء تجاريين لبعضهما البعض أيضًا).

نشأ الانقسام بين السنة والشيعة فى الأصل بسبب السلطة، أى حول من يحكم المجتمع المسلم بعد وفاة النبى ﷺ: هل هم آل بيت النبى ﷺ أم من كانوا يعتبرون الأكثر أهلية لها. واليوم تفاقمت الأمور فى پاكستان، حيث قام السنة بقتل الشيعة أثناء تأديتهم لصلاة الجمعة فى مساجدهم؛ وهو وضع مأساوى ومناف للعقل، ويتعارض مع جوهر مبادئ القرآن وتعاليم النبى محمد ﷺ!

هل العقيدة هى مصدر الشكوى؟

ترجع قوة المعتقدات لسببين :

أولهما : أن لها تأثيراً على نفوذنا أو وضعنا الاقتصادى .

ثانيهما : أنها تشكل أصلاً بذاتها .

سئل الحاخام ديفيد هارتمان مؤسس معهد شالوم هارتمان بالقدس أثناء وجوده فى معهد تشوتوكوا بنيويورك فى صيف ٢٠٠٢ : «هل سيسعد اليهود إذا ما تخلى المسيحيون عن اعتقادهم بأن المسيح إله؟» فأجاب الحاخام بدون تردد قائلاً : «لا يعنينى ما تعتقد ـ طالما أن الاختلاف بين ما تعتقد وما أعتقد لا يخرجنى عن الفريق . . . . . » ويقصد بالفريق فرصة المشاركة الكاملة فى الجماعة الأكبر من المجتمع العالمى ـ مشاركة المواطنين الآخرين فى فوائد الاقتصاد والسلطة ـ لأن هذا الاستبعاد هو ما يرى الفلسطينيون أنه قد حدث لهم بدقة .

يعظم كثيرون منا أفكاراً مثل فلسفتنا فى الحياة أو نظرتنا للعالم أو الميثاق الاجتماعى الذى يربطنا بالآخرين ويحدد كيفية التفاعل معهم ؛ وأعتقد أن أهم هذه القيم لمعظم الناس ، بما فيهم الملحدون واللاأدريون ، هى تلك القيم التى تثير إذا ما تم انتهاكها أو مخالفتها ، فإنها عرض الكر أو الفر ؛ فلدى معظمنا مجموعة من المعتقدات الراسخة التى تحدد كيف نتصل بالعالم من حولنا ، ومن ثم ، فبهذا ا لمعنى أود أن أقول بأننا جميعًا «متدينون» ولكن تبقى أسئلة : ما هو ديننا؟ وكيف يختلف عن الديانات الرئيسية الأخرى؟ وكيف يمكن أن نفهم بعضنا بعضًا؟

تعتبر العقائد من بين أغلى ممتلكاتنا قيمة وتلقى إعزازاً خاصّا من قبل هؤلاء الذين استغرقت كياناتهم فى معتقداتهم الخاصة بمسألة معينة . غالبًا لا تمثل ماهية المعتقد أية أهمية ، ولكن ما يهم هو ارتباطك النفسى بأهمية المعتقد ، لا سيما وهو يؤثر عليك شخصيّا .

لن أنسى أبدًا عندما اشترى والد أمى كبدة خروف طازجة من جزار القرية وطلب أن تنقع فى خليط من البصل وعصير الليمون الحامض قبل تحميرها . ثم استشاط غضبًا عندما خالفت أمى وزوجة أبيها أوامره ، لم أره مطلقًا مهتاجًا عاطفيّا بسبب أى شىء

بقدر ما رأيته فى هذه المرة؛ والآن فهمت سبب هذا: فقد تعرض طلبه للرفض (وتعتبر هذه مسألة سلطة لها أهمية خاصة عند الرجل العربى فى بيته)؛ كما أنه رأى الأصل الذى اشتراه (وهو كبدة الخروف الشهية التى كان ينتظرها، فهى أكثر شىء طازج فى محل الجزار) قد تلف.

يكمن دائمًا التحدى الذى يواجه أى شخص يتدخل فى حل صراع فى كيفية تحديد القضايا الرئيسية الكامنة والخاصة بالسلطة والأصول، والتى لا تظهر غالبًا على السطح. أما ما يسهم فى استمرار العنف فهو فى الغالب دائمًا زمرة قوية من الارتباطات العاطفية لدى كل جانب تتجاوز تمامًا الاحتياجات العادية للحياة اليومية، وإن كانت غير منطقية على الدوام تقريبًا.

لا يحتاج المرء إلى درجة علمية متقدمة فى العلوم الاقتصادية أو السياسية ليدرك أن العنف الفوضوى المنتظم يعتبر أمرًا غير صحى بالنسبة للمجتمع؛ فالناس لا يشعرون بالأمان، وتضطرب أسواق المال، بل وتتوقف الحياة تمامًا عند اندلاع العنف، فلتنظر إلى ما يحدث للإسرائيليين والفلسطينيين على مر الأعوام القليلة الماضية. تدهور اقتصاد متزايد لكلا الجانبين. وبينما يعانى الفلسطينيون من سوء التغذية، كان الاقتصاد الإسرائيلى يعانى من السقوط الحر، وظل الجانبان أسرى الشعور بعدم الأمان.

الأصوليون العدوانيون: فريق الدفاع

افترض كونراد لورانز، كاتب أحد أهم المؤلفات بعنوان: «حول العدوان»: «أن العدوان الذى غالبًا ما تعتبر آثاره مماثلة لتلك الناجمة عن الرغبة فى الموت، غريزة مثل أية غريزة أخرى، وأنه مثله مثل غيره، يساعد فى الظروف الطبيعية على ضمان بقاء الفرد والأنواع»[٩]؛ فعندما تشعر جماعة ما بأنها معرضة للهجوم فإن قدرًا معينًا من العدوان قمين بأن ينشأ باسمها لضمان بقائها، وأعتقد أن هذه الغريزة الدفاعية هى التى أدت إلى ظهور جميع الحركات الأصولية الدينية، وهذا بالتأكيد ما حدث مع الإسلام.

لقد كان الخوارج أول ظهور لنزعة القتال العدوانية باسم راية الإسلام، وقد وقع هذا فى خلافة أكثر الخلفاء حبًا وتبجيلاً فى قلوب المؤمنين، ألا وهو الخليفة الرابع على ابن أبى طالب رضي الله عنه، ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة، والذى تحداه معاوية[١٠]،

حاكم دمشق فى محاولة للوصول إلى السلطة السياسية. فقد عزم على ﷺ على عزل عدد من الولاة بما فيهم معاوية؛ وذلك لأنهم لا يحكمون حسب قانون العدل الإسلامى. وعجل ذلك بحدوث تمرد ضد على أدى إلى وقوع معركة صفين بين على ومعاوية. كان على ﷺ على وشك الانتصار فى هذه الموقعة إلا أن أحد رجال معاوية دبر حيلة ذكية: فقد وضع القرآن على أسنة الرماح، الأمر الذى يعنى «دعنا نحتكم إلى القرآن». جعل هذا أصحاب على يتوقفون عن القتال خالقين جوّا من الهدوء المؤقت فى المعركة عجل باللجوء إلى التحكيم الذى لم يتمخض عن إعلان فائز صريح؛ ونتيجة لذلك، غضب بعض من أقوى الجنود فى صفوف على نتيجة لتراخيه تجاه متحديه فى الدفاع عن الأمة والخروج بها من هذا التحدى إلى مساره الصحيح.

كان الخوارج قبل تسميتهم بهذا الاسم مجرد جنود شعروا بالإحباط لمنعهم من مقاتلة عدوهم ـ معاوية حاكم دمشق ـ الذى كان يدمر الإسلام حسب رأيهم؛ لكن هذه الجماعة سطرت فى النهاية تاريخًا بحربها المأساوية لقائدهم على، وكان كل هذا بسبب خلاف عاطفى فى الرأى.

انشق الخوارج على على حتى أنهم اغتالوه فى النهاية؛ وفى حين أن معاوية عندما شن ـ على وجه التأكيد ـ عدوانه ضد على فإنه لم يفعل ذلك تحت اسم الإسلام. كانت معركته فى سبيل السلطة والحكم. وعلى الجانب الآخر، رأى الخوارج أنهم يدافعون عن الإسلام بقتالهم الزعيم الشرعى للأمة، وكانوا يعتقدون أنه كان لزامًا على الخليفة العادل أن يحارب عن رعيته ويحميهم، وإن لم يفعل ذلك فإنه يصادر حقه فى خلافة المسلمين، بل لقد وضعوا نظرية عن الخلافة، وحددوا مؤهلات الإمام (قائد الأمة) بناءً على هذه الأفكار.

يذكرنا هذا الموقف إلى حد ما بالجنرال جورج باتون فى نهاية الحرب العالمية الثانية. حيث ترسخ لديه الاعتقاد بأنه كان ينبغى على الولايات المتحدة أن تستمر فى زحفها على ألمانيا، وأن تتحدى الاتحاد السوفيتى أيضًا. لكن الرئيس هارى ترومان فرض سيطرته عليه. ولنتخيل الآن لو كان باتون قد اعتبر أن قرار ترومان محاباة للاتحاد السوفيتى «وخرج» على ترومان وشن عليه حربًا؛ لأنه لم يكن عدوانيًا بشكل كاف تجاه عدو الولايات المتحدة، عندئذ كان باتون سيصبح بهذا فى وضع الخوارج. وبمعنًى ما

فإن مضى باتون إلى حد ما فى طريقه يشبه إلى حد ما ظاهرة الخوارج، وهو ما يجعله ملكيًا أكثر من الملك فى دفاعه العدوانى عن الأمة ضد أعدائها.

تقول نظرية لورنز: إن هذا النوع من العدوان للدفاع عن الأمة ينشأ بيولوچيًا من أجل حماية «الأنواع» والأنواع التى تتم حمايتها قد تكون عرقية، قبلية، أو دينية. فعلى سبيل المثال، مثلت حركة الفهود السود العنيفة فى الستينيات هذا النوع من العدوان فى سياق حركة للحقوق المدنية تسعى للدفاع عن الأمريكيين السود ضد الأمريكيين البيض الذين فرضوا عليهم ظلم العبودية التاريخى (ثم التمييز العنصرى بعد ذلك). ولكن بعدما دفع الرئيس ليندون جونسون بتشريع الحقوق المدنية وأحرز الأمريكيون السود تقدمًا فى معركتهم لاكتساب الحقوق المدنية، سقطت عوائق قانونية وانتخابية، وتم ابتكار خطط للعمل لإثبات الجدارة، وأصبحت التفرقة العنصرية ضد السود انتهاكًا للقانون. ومع حدوث كل هذا، كان من المحتم أن تنحسر نزعة القتال للسود.

فعلى الرغم من أن هذا لا يفسر جميع أسباب العدوان الدينى أو العدوان الذى يرتكب باسم الدين، إلا أننى أعتقد أن جزءًا مهمًا من الأصولية الدينية فى القرن العشرين (الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، والهندوسية، والسيخية) نتجت كرد فعل دفاعى ضد الهجمات الموجهة المتصورة؛ فالأصوليون، طبقًا لنظرية لورانز، هم معتدون أخذوا شكل الخوارج بقصد الدفاع عن جماعتهم الدينية من الهجمات التى يتعرضون لها من أية جهة كانت: فالأصوليون اليهود فى مواجهة اليهود العلمانيين، والأصوليون السيخ تصدوا لهجوم أنديرا غاندى العادى على الموقع المقدس لهم وهو المعبد الذهبى، أو رد فعل المسلمين تجاه الحداثة وما يتبعها من علمانية نزاعة للقتال.

هذا، وقد عرض عالم الوراثة ريتشارد دوكينز بعضًا من الأفكار المثيرة عن العدوان فى كتاب عن الجين الأنانى والتى تكمل نظرية لورانز، ومن بين رؤاه المتبصرة أنه إذا ما توقعنا مساعدة من طبيعتنا البيولوچية من أجل بناء مجتمع يتعاون فيه الأفراد بسخاء وأثرة من أجل تحقيق الصالح العام، فينبغى علينا حينئذ أن نعرف كيف تعمل البيولوچيا غير الواعية لدينا[١١].

وذكر من بين السلوكيات التى نلاحظها فى مملكة الحيوانات سلوك اللدغ لدى النحل الشغال دفاعًا عن الخلية. ونتيجة لذلك تموت النحلة الشغالة، حيث تخرج أعضاء داخلية حيوية من الجسم أثناء عملية اللدغ. وبهذا يحقق «الهجوم الانتحارى» للنحلة الشغالة ضد المعتدى الغرض منه وهو إنقاذ الخلية، لكن لن يتسنى للنحلة جنى ثمار ما فعلته؛ ولا يعتقد علماء الأحياء بأن النحلة قد فعلت هذا كشهيد يبحث عن الحياة الأبدية فى جنة النحل، ويتساءولون بطبيعة الحال: كيف تحدد جينيّا هذا السلوك اللاواعى المتسم بالأثرة؟

وهو يفترض أن نطاق السلوك فى مملكة الحيوانات، ابتداءً من الإيثار الأبوى وانتهاءً بالاعتداء على الآخرين، والذى ربما يبدو لدينا إما كأمثلة للأنانية الفردية الواعية أو الإيثار الفردى، يمكن تفسيره عن طريق تطبيق فرع من الرياضيات يسمى نظرية المباراة، يقوم بحساب مردودات تشكيلية من الصفات السلوكية المختلفة. وحيث إن هذه المردودات تبدو فى صالح رفاهية الجين أكثر منها فى صالح رفاهية الكائن الحى وتتجاوز على ما يبدو السلوك الواعى المترسخ فى شعورنا بالإرادة والقيم، فقد أطلق دوكينز على هذه الفكرة اسم «أنانية الجين».

كما لاحظ دوكينز وجود ما أطلق عليه «استراتيچية ثابتة للتطور»، فعندما تعايش جماعة ما عدوانًا عليها نتيجة رغبة البعض فى تحقيق منفعة على حسابها، تنشأ أنماط من السلوك العدوانى المتبادل يعكس صوراً ثابتة، وعلى الرغم من أن التعاون المتبادل يحقق أرباحًا أكثر لكلا الجانبين، إلا أن العدوان يستعلى لتحقيق مكسب قصير المدى.

إن جوهر تحليل دوكينز هو أن البشر «خلقوا على هيئة آلات جينية... **لكننا لدينا قوة الانقلاب على الخالقين لنا؛ فنحن الوحيدون على وجه الأرض الذين يمكنهم التمرد على استبداد الناسخين الأنانيين**»[١٢] (استخدام البنط الأسود من إضافتى)، وبقدر ما يتحدد السلوك الإنسانى بيولوچيّا وجينيّا، فإن نظرية دوكينز تفسر لماذا يحارب البشر من أجل الوطن، أو القبيلة، أو من أجل تحقيق التضامن الإقليمى، أو التضامن الأسرى، أو من أجل النفس نشبت الحرب داخل الأسرة. وتشرح أيضًا وإلى حد ما الدور الذى يلعبه الانتحار فى السلوك الإنسانى عندما يكون له مردود لصالح

الجماعة التابع لها الفرد، ويكون من المعقول استنتاج أنه كما تطور النحل ليقوم بعدوان انتحارى لصد الهجوم على نوعه البيولوچى، فإن العدوان الانتحارى سيتطور كإحدى وسائل التصدى لما يعتقد أنه هجوم على الجماعة، وذلك بمقدارما تتبع الجماعات البشرية سلوكًا تطوريّا.

إن الاستسلام «لاستبداد الناسخين الأنانيين» يعنى بالنسبة لى ما يحدث عندما ندع أنفسنا نخضع لاستراتيچيات التطور الثابت للعنف والعدوان الذى توضحه حسابات نظرية المباراة. ويحدث «تمردنا ضد من يقومون بنسخنا» عندما ندرك أنه يمكن تحقيق مردود اجتماعى أفضل، وذلك عن طريق التعاون مع بعضنا البعض فى بناء مجتمع مدنى متجانس وتعددى؛ وتسيطر إستراتيچية التطور الثابت لسلوك العدوان والعنف الإنسانى على الأرجح عندما تهلك أو تهن قواعد التعاون الاجتماعية، كما حدث فى أفغانستان والعراق. وتوضح نظرية المباراة أن المنافع التى تعود على المجتمع من جراء التعاون أعظم بكثير من مردود التطور الثابت الذى يسمح بحدوث السلوك العدوانى. والسؤال الطبيعى هو: كيف نستخدم بصيرتنا الواعية من أجل تثبيت المردود الأكبر للتعاون بصورة مصطنعة؟

إن الجواب المختصر على هذا السؤال هو أنه بتشكيل هيكل حكم المجتمع بطريقة تكون فيها أكثر الاستراتيچيات استقرارًا هى تلك الاستراتيچية التى تعظم المردود إلى أقصى حد، بل وتفرض عقوبات صارمة على من يتسبب فى اضطراب هذا التركيب؛ ونسمى هذا بـ«الحكم الديمقراطى» وتعمل الحكومة فيه «بموافقة المحكومين»، وفى هذا المجتمع، يهتم كل شخص، رجلاً كان أو امرأة، «بالمردود الذى يعود عليه» (كيفما حدد المرء الحياة والحرية والتماس السعادة) ويحاول تعظيمه. وتشير نظرية المباراة بأنه عندما يجد الناس سبيلاً لتحميل الحكومة مسئولية تعظيم المردود، فإن هذا المجتمع سوف يحول استراتيچية التطور الثابت إلى اللاعنف[١٣].

تهدف تعاليمنا الدينية والأخلاقية، لا سيما المبدأ الذى جاء فى الوصية الثانية بأن «حب لأخيك ما تحب لنفسك، ولا تؤذ الآخرين كما تحب أن لا يؤذيك الآخرون» والحث على التعاون وكبح جماح ميولنا العدوانية، إلى توفير مردود أكبر للمجتمع حتى لو كان ذلك بدون المردود الإضافى الذى يتوقعه المتدينون فى الحياة الأبدية فى الآخرة.

ماذا وراء العنف الدينى؟

أوضح البروفيسور أشوتوش فارشينى ـ الذى درس الصراع بين المسلمين والهندوس والعنف فى المدن الهندية ـ أن العلاقات الشخصية ونوعيتها يمكن دائمًا أن تمنع اندلاع العنف بسبب الانقسام الدينى[١٤].

والقضية المحيرة التى يبحثها هى: «لماذا رغم التنوع العرقى، تتمكن بعض الأماكن ـ مناطق وأمم ومدن وقرى ـ من الحفاظ على السلام فيها فى حين تعانى أخرى من أشكال دائمة من العنف». «ولماذا تنفجر بعض المجتمعات، بعد تحقيقها لرقم قياسى حقيقى فى السلام العرقى، بأسلوب يدهش المراقب لها كما يدهش العالم الباحث فى الغالب أيضا؟»[١٥].

وقد لاحظ البروفيسور فارشينى نوعين من العلاقات بين طوائف المجتمعات المدنية وهما العلاقة **الاتحادية**، والعلاقة **اليومية**؛ ويقصد بالاتحادية الأحزاب السياسية وجمعيات الأعمال والنقابات العمالية والجمعيات المهنية ونوادى القراءة ونوادى الفيديو والنوادى الرياضية ومنظمات احتفالية وما شابهها. ويقصد بالعلاقة اليومية تفاعلات الحياة الروتينية مثل عيش عائلات مسلمة وهندوسية نفس المجاورات وتزاورهم وأكلهم مع بعضهم البعض، ومشاركتهم معًا فى الاحتفالات وسماحهم لأولادهم باللعب مع بعضهم البعض فى المجاورة.

ففى حين أن كلاّ من نوعى العلاقات صحى ويساعد على تخفيف التوتر، إلا أن العلاقات الاتحادية تكون أفضل بشكل كبير فى مقاومة الصدمات القوية. وفى البيئة الحضرية، تنزع العلاقات الشخصية إلى أن تكون أقل مما يفسر لماذا يميل العنف بين المسلمين والهندوس لأن يكون بصفة رئيسية ظاهرة مدنية بدلاً من أن يكون ظاهرة ريفية. وقد حال وجود علاقات اتحادية دون وقوع العنف فى مدن بها نفس التركيبات السكانية من المسلمين والهندوس التى توجد فى مدن أخرى يقع فيها العنف حيث تغيب تلك العلاقات الاتحادية.

وإذا ما نظرنا إلى طبيعة العلاقات الاتحادية، فإننا سندرك على الفور لماذا هى ملزمة. فقضايا مثل السلطة والمال تنزع إلى أن تتركز فى الأشكال الاتحادية من الارتباط

المدنى، وليس فى فئة العلاقات اليومية. وتمثل جمعيات الأعمال والنقابات العمالية والأحزاب السياسية الروابط بين المال والسلطة، بينما تسمح نوادى القراءة والفيديو والنوادى الرياضية بتشكيل الهوية الشخصية والروابط التى تتعلق بالمصالح المشتركة. وتبدد هذه العلاقات التوترات ـ التى تتخلل مواطن أخرى تصل إلى درجة الانفجار ـ فى مدن قامت فيها شبكة من الروابط الاجتماعية والصلات الاقتصادية وعلاقات مشاركة السلطة على خلفيات دينية. وفى الحالات التى يبدو فيها العنف وشيكًا، استطاع قادة طوائف من المسلمين والهندوس منع اندلاعه، ذلك أن لهم فى ذلك مصالح خاصة، وتبددت الحدود التى فصلت «بيننا» وبين «الآخر» بفعل روابط المصلحة الشخصية.

كيف يمكن تطبيق هذه المعلومات لمعالجة صراع، مثلا الصراع القائم بين إسرائيل وفلسطين؟ يتمثل نهج لذلك فى إيجاد وسائل تجعل من خلالها زعماء الرأى والسياسة شركاء فى التحمل المباشر لمكاسب وخسائر كلٍّ منهما. ربما يبدو هذا المثال غاية فى التبسيط، ولكن إذا ما استطعنا إيجاد صيغة عملية تقضى بتحمل القيادة الإسرائيلية شخصيّا خسارة مالية فادحة عندما يقتل فلسطينى على يد إسرائيلى؛ وبالمثل تتحمل القيادة الفلسطينية شخصيّا خسارة مالية فادحة عندما يقتل إسرائيلى على يد فلسطينى، فسيؤدى هذا الضغط على أعلى المستويات للحد من العنف. هذه هى الفكرة وراء الدية التى يدفعها القاتل لعائلة الضحية بموجب الشريعة الإسلامية، كما تم تطبيق هذا المبدأ فى الماضى البعيد، عندما تشكلت الروابط الإلزامية من خلال تزويج الملك أو الأمير من أميرة تنتمى إلى الطرف الآخر، ولكن اليوم لا نتوقع زواج ابن أريل شارون من بنت ياسر عرفات، ولكنك بالطبع قد فهمت ما أقصده، وفى العالم الحاضر، يتطلب الحل مقدارًا كبيرًا من الروابط الاتحادية ما بين المتنازعين شاملة تشكيلة كبيرة من المشروعات التجارية والاجتماعية والمدنية.

عذرًا، ولكن فى سبيل أى إله تقاتلون ؟

وعلى النقيض من الرأى المشهور، فإن القرآن بموجب أنه آخر تكرار لملة إبراهيم، حرم بوضوح وجلاء الإكراه فى الدين؛ وذلك لأن الإكراه ينافى حقّا إنسانيّا رئيسيّا

وهو الحق فى حرية العقيدة، ولا يعتبر نظام العقيدة المختلف سببًا مشروعًا للعنف والحرب فى الشريعة الإسلامية؛ وقد جاء القرآن قاطعًا فى هذا الشأن، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ١ـ٦].

دعونا نبحث هذه القضايا بشكل مستفيض، فالناس يقاتلون من أجل ما يعتبرونه بصفة شخصية قيمًا، حيث إننى سأصبح على الأرجح متورطًا عاطفيًا إذا ما قام شخص ما برمى حجارة على نافذتى بأكثر مما أفعل لو قام برمى نافذة حجرة غريب يعيش عبر المدينة. وعندما يتم الاعتداء على أرضنا الخاصة يضغط هذا على زر غريزتنا الدفاعية والعدوانية، وهذا ما يمثل تطبيقًا للتعليق المشهور للرئيس السابق باسم مجلس النواب تيب أونيل بأن «السياسة بأكملها محلية».

لقد سلكنا هذا السبيل الشاق من أجل الدفاع عن القيم العزيزة علينا. تمامًا مثل أنثى الفيل التى تقاتل حتى الموت من أجل حماية طفلها الذى تعظم قيمته، وربما تقاتل من أجل طفل أنثى غيرها وإن كان بعاطفة أقل، ولكنها بالتأكيد لن تقاتل من أجل طفل اللبؤة؛ أما نحن البشر فلدينا للأسف ميل لاعتبار البشر ذوى الديانات والأجناس والأعراق المغايرة أنواعًا مختلفة عنا، ومن ثم نقيمهم ونعاملهم بشكل يختلف عن الطريقة التى نتعامل بها مع أنفسنا!

دائمًا ما يبرر الناس موقفهم من القتال فى سبيل شىء ما بما يتعلق بقيمهم الدفينة: ألا وهى العدل أو الصدق أو الشرف أو الحرية أو الكبرياء القومى أو حماية شخص عزيز. وبالنسبة للبعض، يعتبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق الناس جميعًا، الذى يستند إليه فهمهم للعدالة المطلقة والصدق المطلق والحب المطلق والحرية المطلقة. ويقاتل الملحدون واللاأدريون، على الرغم من عدم إيمانهم بوجود خالق للناس جميعًا، بل وربما يعتبرون هذا اعتقادًا سخيفًا ـ فى سبيل قيم مثل العدل والصدق والشرف والديمقراطية. وهكذا، فإنه من الطبيعى والمنطقى تمامًا أن يقاتل الناس، حتى الموت أحيانًا ـ فى سبيل الإله الخاص به، سواء كان إلهًا شخصيًا أو شيئًا يمثل أعز القيم الإنسانية عندهم.

وكما ذكرنا من قبل، فإن القرآن لا يسمح بالاعتداء على الآخرين بسبب مجرد معتقداتهم، ويمضى القرآن فى آية موحية على وجه خصوص إلى ما هو أبعد من هذا فيحرم العدوان على هؤلاء الذى لا يؤمنون بإله، داعيًا المسلمين بأن يكونوا متقبلين للتعددية، وينفتحوا على الأنظمة العقائدية للآخرين، فيقول تعالى: ﴿**اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٠٦ـ١٠٨].

كما أوضح النبى ﷺ فى أسلوب تعليمى توجيهى رفيع كيف أن التعامل مع الآخرين بطريقة فظة يمكن أن يرد هذه الفظاظة علينا؛ فيقول ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله! وكيف يشتم الرجل والديه؟! قال: «يَسُبُّ أبا الرجل فَيَسُبُّ أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١٦]؛ وقد استدل الفقهاء بهذا الحديث على أننا مسئولون عن عداوة الغير لنا إذا ما نتج ذلك عن جهلهم وردّا على الاعتداء على قيمهم.

لقد شرع الإسلام القتال فى حالة الدفاع فقط؛ أى عندما نتعرض للاعتداء، أو نطرد من بيوتنا، أو نحرم من حقوقنا الرئيسية بسبب اختيارنا لمعتقدنا، فيقول تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٨ـ٩].

حتى فى الحالات التى يسمح فيها بالقتال، فإن القرآن لا يسمح على الإطلاق بقتل الأبرياء، ويوجه المسلمين إلى أن يضعوا أسلحتهم بمجرد أن يلتمس الطرف الآخر السلام؛ فيقول تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**

﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]؛ كما يشدد القرآن فى تحريم العدوان بدون سبب، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠].

إن هذه المبادئ القرآنية غاية فى الأهمية، وينبغى على الزعماء المسلمين إلى جانب زعماء كل الأديان أن يكرسوا الوقت الكافى لفهم هذه المبادئ؛ وينبغى لغير المسلمين استخدام هذه الآيات فى مناقشتهم مع المسلمين؛ حيث إن ما تعنيه هذه الآيات القرآنية ليس فقط أن للبشر حرية الاعتقاد بالطريقة التى يريدونها، بل أيضًا، وربما أهم، أن الاختلاف فى المعتقدات يجب أن لا يكون أساسًا لحرمان أى شخص من حقوقه المدنية والإنسانية، أو من المشاركة الكاملة فى العالم الاقتصادى والاجتماعى الذى يعيش فيه، وهذا هو الشرط الأساسى للتعددية، وهو خلق إسلامى متأصل يؤكد القرآن عليه بقوة.

إياك والعبث بمعتقداتنا الغالية!

توضح الآيات القرآنية التالية الروابط العاطفية التى تقيدنا بمعتقداتنا وتقاليدنا، وكيف نجد أن تغيير هذه المعتقدات والتقاليد فى غاية الصعوبة على الرغم من اقتناعنا بأننا منطقيون وذوو رأى قويم، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ـ ١١١].

تقصد الآية أنه لا داعى للمناقشة، حيث إن الارتباط البشرى بالأفكار العقائدية والمعتقدات التقليدية معروف، حتى ولو كانت خاطئة، وهناك قصة يهودية عجيبة توضح هذه النقطة جيداً. ففى أحد اجتماعات الأحبار، كان هؤلاء الحكماء يناقشون

جزءًا من القانون المقدس، ووجد أحدهم نفسه فى تعارض مع باقى الجماعة على إحدى نقاط التفسير؛ ولأنه يعلم أنه على صواب، دعا الله أن يتدخل قائلاً: «أرجوك يا إلهى! إن كنت على صواب، فاجعل جداول إسرائيل تتدفق لأعلى المجرى»؛ فغيرت المياه مجراها على الفور؛ ولكن ولسوء الحظ، لم يُحرك خصومه لذلك ساكنًا، فدعا قائلاً: «أتوسل إليك يا إلهى! إن كنت على صواب، أن تجعل الأشجار تنحنى على الأرض»، فمالت الأشجار إلى الأرض، ولكن ظل قرناؤه على عنادهم؛ فناشد إلهه قائلاً: «يا إلهى! أرجوك تحدث بصوت عال وأيدنى» فانشق السحاب على وجه السرعة وسُمع صوت عظيم من السماء له دوى يقول: «يا أصدقائى! علىّ أن أصارحكم بأنكم مخطئون وبأنه على صواب، وهذا ما قصدته». فتبسم العجوز الوحيد مبتهجًا بالانتصار، ولكن الجماعة لم يؤثر فيها ذلك، وقالوا: «يا صاح! نحن لا نحفل بأصوات السماء؛ وذلك لأن الإجابة الشافية عن هذه النقطة قد دونت وحددت منذ زمن طويل». أفما زلت تتعجب الآن لماذا قوبل حتى الأنبياء المؤيدون بالمعجزات بالرفض؟

إن محاولة إقناع الناس بمحض منطق حجتك فقط لمعركة عصيبة، والأفضل أن تجذب عواطفهم، حيث إذا انجذب الناس عاطفيًا إلى فكرتك، فعلى الأرجح أنهم سيبتكرون حججهم المؤيدة لها. إن من الصعوبة بمكان تغيير المعتقدات العزيزة، والتى تم التمسك بها لفترات طويلة حتى ولو كانت واضحة الخطأ؛ وهذا هو سر الأهمية الحاسمة للدور الذى يقوم به قادة الدين ـ فى جميع الأديان ـ الذين يتميزون بنفاذ البصيرة ورجاحة الفكر.

هل أنت متأكد أن الإله أخبرك بعمل هذا؟

بعودتنا إلى القضية المتعلقة بمتى يكون استعمال القوة مبررًا، دعونا نبحث أهمية نية الفاعل. فالبشر يتأثرون بشكل كبير بالخداع والنية غير الصادقة؛ فالنساء اللواتى يغضبن من أزواجهن سوف يقلن بغير تفكير: «لا تقل لى كلامًا معسولاً!» عندما يحاول الزوج النادم ظاهريًا استرضاءها. وهذا لا يعنى أنها لا تتقبل كلماته المعسولة، ولكنها ترى أن أفعاله تخالف مقاصده. ومن المفهوم أن نتقصى نوايا الناس، لا سيما

عندما يدّعون أنهم يقاتلون فى سبيل قضية معينة . ولقد ثار الغضب ضد رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة بسبب عدم العثور على أسلحة دمار شامل فى العراق، ومن ثم ظهر أن الدافع الحقيقى وراء الحرب فى العراق كان فى الحقيقة شيئًا آخر ؛ فالناس يكرهون خداعهم، ولقد تساءل كثيرون هل كان سيتم غزو العراق إذًا ما لم يكن بها نفط . سبب هذا يفسر اعتبار النية أمرًا حاسمًا فى المحاكم ؛ حيث لا نحكم بأن ذلك قتل عندما تنزلق سيارة شخص ما على طريق جليدى فتصدم أحد المشاة، ولكن نحكم بأنه قتل خطأ، وشتان بين هذا وبين القتل العمد .

ذكر الحديث الأول فى صحيح الإمام البخارى قول النبى ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[١٧]، ويرى الإمام الشافعى، مؤسس مدرسة للشريعة فى الفقه الإسلامى سميت باسمه أن هذا الحديث يحتوى على ثلث الحكمة ؛ لهذا لم يكل علماء التربية الروحية الإسلامية على الإطلاق من التنبيه إلى مراقبة النية وتصحيحها فى أعمالنا الدينية والروحانية، وهذا لا يقل صحة بشأن النوايا العسكرية والسياسية .

عندما يريد الناس القيام بشىء ويسعون إلى الحصول على تأييدك لما يقومون به، فإنهم بلا شك يقدمون أسبابًا تضرب على نفس وتر الأسباب الذى تضرب عليه . فأى سبب أفضل فى ذكره من القيم التى ترسخت بعمق فى داخلك؟ ومن ثم، يدعى كثيرون من الناس أنهم يقومون بفعل أمر ما «ابتغاء وجه الله» . وتوضح القصة الشهيرة التالية التى تتحدث عن رجلين متجاورين فى حجرة من عنبر القسم النفسى، فقد سأل الطبيب أولهما عن السبب وراء ما فعل، فأجاب المريض : «أمرنى الله بفعل ذلك»، فرد المريض الثانى قائلاً : «لا لم آمر بذلك» وهنا يطرح السؤال نفسه : هل نقبل ما يفعله الآخرون باسم الله الإله فى الظاهر على أنه هكذا فى الحقيقة؟

لنأخذ مثلاً جماعة أوم شينريكيو التى قام أعضاؤها بإطلاق غاز الأعصاب سارين السام فى شبكة مترو الأنفاق بطوكيو، مما أودى بحياة العديد من المسافرين بالإضافة إلى جرح الآلاف وذلك فى مارس ١٩٩٥ . إذ يعتبرهم المؤرخ الدينى مارك جيرغنسمير «نبتا من الديانة البوذية اليابانية، وتساءل قائلا : « لماذا يفضى دين، فيه أقل قدر من البوذية إلى مثل هذا؟»[١٨] .

لقد قام جيرغنسمير بإجراء مقابلة مع تاكيشى ناكامورا، أحد أعضاء جماعة أوم، الذى التحق بها لينشد شيئًا له طابع تحويلى على المستوى الشخصى وطابع نبوى على المستوى الاجتماعى، غير معظم أشكال البوذية (اليابانية)، التى اعتبرها «خاصة بالعلماء أو بأنها وجدت لتيسر طقوس الجنازة فقط»؛ وكان يرى أن المجتمع اليابانى قوى وهرمى لا تتمثل فيه مبادئ العدل والحرية بشكل كاف، كما أنه مجتمع لا يسهل تغييره. وقد قدم زعيم جماعة أوم، شوكو أساهارى، من خلال حركته، «ليس فقط تجربة شخصية روحية [يقول جيرغنسمير: إنها تتحقق باحتساء رشفة من شراب الانضمام إلى الحركة من زجاجة مخلوطة بعقار (إل إس دى) المخدر]، بل قدّم أيضًا مجتمعًا يتسم بالمساواة وبرؤية لنظام اجتماعى متغير يهتم بالهموم الاجتماعية لناكامورا». لقد أصبح من الواضح أن أساهارى كان مدفوعًا بغضب داخلى ضد المجتمع اليابانى، وكذلك برغبة داخلية للوصول للسلطة، كان يريد أن «يكون مثل الملك»، «أو مثل المسيح»[١٩]. ولكن هناك تعبير قديم يقول: «إن بوذا والشيطان لا يختلفان عن بعضهما سوى قيد شعرة»[٢٠]. وإذا ما فشلنا فى إدراك هذه الشعرة من الاختلاف، فإننا سوف نخلط التعبيرات الصحيحة للدين بتعبيرات خاطئة، ومن ثم ربما نسىء للآخرين فى هذه العملية. وهذا يفسر لماذا لا يعتبر البوذيون المخلصون أوم شينريكيو تعبيرًا حقيقيًا للبوذية، تمامًا كما لا يعتبر المسلمون المخلصون أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعبيرًا حقيقيًا للإسلام. وهناك مثل قديم آخر يقول: «لقد أعطى كل إنسان مجموعة من المفاتيح بإمكانها فتح أبواب الجنة، ولكن يمكن لنفس هذه المفاتيح أن تفتح أبواب جهنم».

يسعى المريدون الروحانيون لأن يكونوا متدينين بمعنى أن يكونوا أتقياء؛ ولكنهم يمكن بسهولة أن يقعوا تحت تأثير هؤلاء الذين تنصب نواياهم على السلطة والثروة وهما إلهان، لدى قليل من البشر حصانة كاملة منهما، لذا تعلم جميع الطرق الروحية الصحيحة أهمية التأكد على أننا غير مخدوعين، وهى مسألة ليست هينة بالدرجة التى نتصورها، فكما قال جلال الدين الرومى: «يوجد ذهب المغفلين لسبب واحد، وهو أنه يوجد ذهب حقيقى».

فعندما يقتل الناس باسم الله، فإنهم عادة ما يفعلون ذلك فى الحقيقة باسم الأنا الخاصة بهم أو النضال على السلطة، أو الرغبة فى الحصول على أصل آخر. وهذا

الأصلى ربما يتمثل فى رغبتهم فى تحقيق العدل، والذى يصاغ ببساطة فى لغة الدين. ويوضح جيرغنسمير أن بعض البوذيين عرضة لصياغة رغبتهم فى تحقيق العدل فى حجج دينية بتذكير القارئ بأن رئيسة وزراء سرى لانكا، دابيو آر دى باندرانايك، قد قتلت على يد راهب بوذى فى عام ١٩٥٩م. وحيث يعتقد البوذيون فى قانون كارما، فيوضح جيرغنسمير: «أن الساسة الذين وصفوا بالقسوة واعتبروا أعداءً للدين، يتوقع منطقيًا أن إراقة دمهم كنوع من أنواع الانتقام فى عقيدة كارما للأفعال التى قاموا بها»[٢١].

لقد أساء أساهارى زعيم جماعة أوم تفسير مفهوم «فوا» البوذى التبتى ـ وهو نقل الوعى من الحى إلى الميت من أجل رفع إعلاء جدارته الروحية أثناء عملية التناسخ ـ ليخلص إلى أنه فى بعض الأحوال كان يقدم مساعدة للناس بقتلهم؛ ويشرح جيرغنسمير قائلاً: «إذا كان المقتولون أوغادًا أو وقعوا فى شراك نظم اجتماعية شريرة على نحو يجعل النظم الاجتماعية فى بيئة وجودهم فى هذه الحياة أكثر من ذلك يفضى إلى إثم قدرى أكثر سوءًا، فإن من يقومون بالقتل يسدون معروفًا لضحاياهم، وذلك بتمكينهم من الموت مبكرًا. وبالتالى، يكون موتهم المبكر نوعًا من أنواع القتل بدافع الرحمة بما يسمح لأرواحهم بالصعود إلى مستوى أسمى، (أو بشكل أكثر دقة، منعهم من الهبوط إلى مستوى أدنى) مما يمكنهم تحقيقه بأية طريقة أخرى[٢٢].

حذر الإمام الشاذلى ـ شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية ـ المريدين الروحانيين قائلاً: «تعرف على وسوسة [الشيطان] التى تنقل شيئًا يشبه المعرفة التى تأتى من طريق الإلهام والكشف!»، ونصح السالك الروحى بأن يتجاهل هذا إذا ما تنافى مع «الحقيقة القاطعة المنصوص عليها فى الكتاب وتعاليم النبى ﷺ»[٢٣].

إذا ما قضينا على منابع الصراع الشائعة والمعتادة، أعنى الظلم المتصور فى السلطة والاقتصاد، وإذا ما أنشأنا مجتمعًا يشارك فيه الناس من كل المعتقدات الدينية فى الحكم الجماعى، ويتمتعون بالمساواة فى الحصول على الثمار المادية للمجتمع ـ المجتمع الذى يجسد مبادئ العدل والإنصاف والحرية ـ فإننا بذلك سوف نقضى على معظم الأسباب الرئيسية لتقاتل الناس باسم الإله.

أليس المسلمون مطالبين بإعلان الجهاد؟

إن الجهاد يعنى النضال، فبينما يستخدم المسلمون مصطلح **الجهاد الأصغر** للإشارة إلى ما يسميه المسيحيون «الحرب العادلة»، فإن مصطلح **الجهاد الأكبر** يشير إلى الحرب النفسية التى نخوضها داخل النفس من أجل إقامة مملكة الله فى سلوكنا ومن أجل بناء أسلوب للحياة يعكس أوامر الله فى كلٍّ من حياتنا الفردية والجماعية؛ ويدور الجهاد حول بناء ما يسميه الفلاسفة الغربيون بـ «المجتمع الصالح»[٢٤].

تلقى المسلمون حثّا شديداً على اتباع سنة النبى ﷺ؛ فنحاول على المستوى الفردى تقليد النبى ﷺ روحيّا وفى طريقة تعاملنا مع أسرنا وأصدقائنا وزملائنا، وتلمسًا للهداية فى المواقف المعقدة، يتساءل المسيحيون الأمريكيون فى حيال موقف معين: «ما الذى كان سيفعله المسيح فى ذلك الموقف؟» كذلك يتساءل المسلمون منذ زمن النبى ﷺ إلى يومنا هذا: «ما الذى كان سيفعله النبى ﷺ فى ذلك الموقف؟». ولا تستخدم أقوال النبى ﷺ وأفعاله، التى تسمى مجتمعة بالأحاديث والسنة، فى هداية سلوك المسلمين فحسب، ولكن أيضًا كمصدر رئيسى للتشريع الإسلامى بعد القرآن.

أما على المستوى الجماعى، يحلم جميع المسلمين بأن يعيشوا يومًا ما فى مجتمع يحكم نفسه بالطريقة التى حكم بها النبى ﷺ فى المدينة فى الفترة ما بين ٦٢٢ وحتى وفاته ﷺ فى ٦٣٢. وهذا عند المسلمين يعادل إرساء أساس مملكة الرب فى الكتاب المقدس عند المسيحيين، ودائمًا ما كانت لدى المسلمين رغبة قوية فى البحث عن سبل من أجل إعادة إرساء أساس هذا المجتمع.

فى بعض الأحيان، نتج عن هذه الرغبة عبارات تنادى بالرجوع لمثل الماضى، ولما كان عليه السلف الصالح، فعلى سبيل المثال أسس الإصلاحيون الجدد دعاة الدين القيّم فى نهاية القرن التاسع عشر جماعة تطلق على نفسها السلفية تهدف إلى تجديد الإسلام بالرجوع إلى التقاليد التى كان يمثلها السلف الصالح، وتحاول هذه الجماعة كغيرها من الجماعات الإسلامية المماثلة إعادة خلق المثل.

لا يختلف هذا كثيراً عن القانونيين الأمريكيين الذين يتحدثون عن القصد الأصلى للمؤسسين وحاجة الأمة إلى احترام أحكام الدستور المدونة منذ قرنين من الزمان،

وهذا لا يعنى أن هؤلاء الدستوريين لديهم رغبة فى الرجوع إلى ما كانت عليه الحياة فى أواخر السبعينيات من القرن الثامن عشر. ويتشابه النضال الذى يسعى إلى خلق مجتمع ديمقراطى يحترم وثيقة الحقوق مع النضال الذى يسعى إلى إقامة مجتمع عادل والذى يمثل جزءاً من الجهاد الجماعى الإسلامى؛ وإلى حد ما، يعنى الجهاد الجماعى فى الفهم الإسلامى لهذا المصطلح النضال من أجل خلق مجتمع دستورى.

وفى كتابه **الجهاد فى مواجهة العالم الكبير**، يصف بنيامين باربر الأستاذ بجامعة روتيجرز، جبهتين فى الحرب الأمريكية ضد الإرهاب منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعكسان وتصفان جيداً هذا الفهم الإسلامى. يتمثل الجهاد الأصغر بالنسبة للأمريكيين فى نشر القوات العسكرية المحترفة والاستخبارات والموارد الدبلوماسية من أجل محاربة الإرهاب والمخاطر التى تهدد الأمن الأمريكى؛ وإذا ما قمنا بتطبيق هذه الفكرة على الجهود الأمريكية الرامية إلى التعامل مع نظام صدام حسين؛ فإن الجهاد الأصغر هنا هو شن الحرب للإطاحة بنظام صدام حسين عسكريّا.

أما الجهاد الأكبر فهو «تحقيق السلام» فى العراق وفى باقى دول الشرق الأوسط. وهذا ما يسميه باربر بـ«الجبهة الثانية» والتى يجب أن تروق «لكل مواطن لديه اهتمام بالديمقراطية والعدل الاجتماعى، داخل الدول على حد سواء وفى علاقاتها ببعضها البعض، كما أنها ستحول المشاهدين السلبيين والقلقين إلى مشاركين حازمين وجادين؛ وهذا هو العلاج الأمثل للخوف»[٢٥].

وفى حين يقدم الجهاد الأصغر باسم عدالة القصاص والمصالح الضيقة (التى تكون علمانية فى حالتنا هذه)، لا بد أن يُتبعه الجهاد الأكبر الذى يشن باسم عدالة القصاص والتعددية الدينية والاجتماعية[٢٦]. وهذا هو الجهاد من أجل السلام ـ الذى يجرى نيابة عن البشرية جمعاء.

وقد جاء فى أول آية قرآنية أجازت قتال النبى ﷺ وأصحابه لهؤلاء الذين اعتدوا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ظلمًا بسبب دينهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج: ٣٩ـ٤٠].

إن ذكر القرآن للصوامع والكنائس والبيع والمساجد يثبت بوضوح أن الهدف من الجهاد لا بد أن يكون دفاعيًا فى المقام الأول، وفى المقام الثانى لإقامة مجتمع تعددى دينيًا يذكر فيه اسم الله بجميع الألسن؛ ولذا يشرع الجهاد فقط لتدعيم ملة إبراهيم ولتعزيز العدالة والحرية الدينية والسياسية، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

ويحث الله سبحانه وتعالى المسلمين قائلاً: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) ﴾ [البقرة: ١٩٠ـ١٩٣].

كما أن الجهاد ليس مقصورًا على المجال العسكرى، فقد قال النبى ﷺ: «أعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر»(٢٧).

وهكذا يحتوى الفقه الإسلامى على مبدأ الحرب العادلة، كما يتضمنها التشريع والفقه الغربى؛ ويطرح مبدأ الحرب العادلة عدة أسئلة، منها على سبيل المثال، متى يجوز لنا الحرب؟ وتحت أى ظروف؟ وكيف نقرر ذلك؟ ويوجد أيضا لدى المسلمين فهم ووصف تفصيلى لمن يعتبر هدفًا مشروعًا ومن لا يعتبر كذلك؛ ومن الجدير بالذكر أن فقهاء المسلمين أفتوا بحرمة أحداث الحادى عشر من سبتمبر بموجب أحكام

الشريعة الإسلامية؛ حيث لا تدخل هذه الأعمال الإرهابية تحت معايير الحرب العادلة، وقد أعلن هذا عدد من أكبر فقهاء العالم الإسلامى، ولكن لسوء الحظ لم يلق ذلك إلا قليلا من الاهتمام فى وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية[٢٨].

الموت من أجل القتل

فى الوقت الذى رأينا فيه مشروعية الجهاد، أى الحرب الدفاعية العادلة، فى الشريعة الإسلامية، فإن الانتحار مهما كانت غاياته محرم صراحة؛ ومن أقوى الأدلة على تحريمه حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه بوضوح: «من قتل نفسه بشىء عذب به فى نار جهنم»[٢٩] كما يقول الله سبحانه وتعالى: «بادرنى عبدى بنفسه، حرمت عليه الجنة[٣٠]»؛ كذلك ذكر النبى ﷺ قصة مؤثرة فى وصف واحد من أهل النار[٣١]، كان هذا الرجل يقاتل مع النبى ﷺ ثم جرح جرحًا شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه على الأرض وسقط عليه فقتل نفسه[٣٢]، ويعقب النبى ﷺ فى رواية لهذا الحديث قائلاً: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة».

ليس هناك من واقعة واحدة أجاز فيها النبى ﷺ الانتحار تحت أى ظرف من الظروف، مهما كانت الأعذار؛ كما أن أقوى أدلة القرآن على تحريم قتل النفس جاء فى آيات الرحمة التالية، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)** ﴾ [النساء: ٢٧ ـ ٣٠].

فى الوقت الذى فسر فيه غالبية المفسرين قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تقتلوا أنفسكم﴾ بمعنى لا يقتل بعضكم البعض، إلا أن بعضهم قد استدلوا به على تحريم قتل النفس؛ فلماذا إذن يقر بعض فقهاء المسلمين العمليات الانتحارية التى ترتكب ضد غير المسلمين، بل وحتى ضد إخوانهم المسلمين حاليًا؟ إن الإجابة القصيرة هى أنهم أعطوا

العمليات الانتحارية اسمًا مختلفًا وهو العمليات الاستشهادية؛ وبهذه الرؤية، فإن منفذى هجمات التفجير الانتحارية هذه مستعدون للتضحية بحياتهم فى سبيل هدف أسمى يؤمنون به بشدة، متبعين بذلك نهج طيارى الكاميكازى اليابانيين وحركة نمور تاميل فى سيرلانكا.

أما الإجابة المفصلة فتقتضى شيئين: أن أقدم عرضًا قصيراً لمنطق الفقه الإسلامى، وأن نبحث الجانب الاجتماعى للانتحار.

دعونا نناقش أولاً مفهوم الحلال والحرام فى الشريعة الإسلامية.

تنقسم جميع أعمال البشر فى الإسلام إلى صنفين هما الحلال والحرام؛ ولذلك فكل ما لم يحرم صراحة فهو فى الحقيقة حلال؛ لذا يحاول بعض الناس وضع قائمة بكل الأعمال الممكنة ويقولون بأنك إذا لم تجدها فى «قائمة الحلال» الخاصة بهم تكون حرامًا تلقائيّا. فى حين يفعل آخرون العكس، فإذا لم تجد العمل فى «قائمة الحرام» التى وضعوها، ، فإنه يكن حلالاً تلقائيّا؛ وعادة ما يعتبر الخيار الثانى أيسر؛ لأن قائمة الحرام أقصر بكثير.

إن قضية ما إذا كان عمل معين حلالاً أم حراما هى مجال وغاية الشريعة الإسلامية ومناطها. والتى يعتبرها المسلمون قانون الله فى الأرض وتتناول أوامر الله ونواهيه؛ إن الشريعة فى المقام الأول الأوامر والنواهى التى ذكرها القرآن الذى يسميه المسلمون حرفيّا «كلام الله»، وفى المقام الثانى الأوامر والنواهى التى ذكرها النبى ﷺ الذى أوضح وفسر وشرح الأوامر القرآنية، بل وشرع بعض الأمور فى بعض الأحيان. وغالبًا ما يسمى هذان المصدران الرئيسيان للتشريع الإسلامى بـ«النص»؛ أما جميع المصادر الفرعية الأخرى للتشريع الإسلامى فهى نابعة من جهود بشرية فى تفسير النص، واستنباط أحكام جديدة متوائمة مع النص أو على الأقل غير متعارضة معه. ومن بين ما تضم هذه المصادر الفرعية هى: الإجماع والقياس والمصلحة والعرف أو العادات وتشريع الدولة والفتاوى الشرعية وغيرها(٣٣).

وخلال ثلاث سنوات من وفاة النبى ﷺ، أنشأ عدد من كبار العلماء علم الفقه

الإسلامى وأقروا جواز وجود أكثر من تفسير حتى فى بعض المسائل الخاصة بالعبادة المأمور بها فى القرآن والموضحة فى أفعال النبى ﷺ .

وكان يمكن أن يحدث ذلك بطرق كثيرة؛ ففى بعض الأحيان، كان النبى ﷺ يفعل شيئًا بطرق مختلفة فى أوقات مختلفة، فقد اعتاد ﷺ ، على سبيل المثال، أن يصلى واضعًا يديه متقاطعتين على صدره، ولكنه ﷺ صلى أيضًا واضعًا يديه ممتدتين إلى جانبيه. وبناء على هذا، ففى الوقت الذى اعتبر فيه كلا المدرستين أن هذه الاختلافات صحيحة، إلا أن مدرسة فضلت أحدهما، وفضلت الثانية الأخرى، وفى مثال آخر، سافر فيه النبى ﷺ ذات مرة فى رمضان، فصام بعض الصحابة فى حين لم يصم البعض الآخر بنية تعويض هذه الأيام بعد رمضان؛ حيث رخص القرآن الفطر للمسافرين، فأقر النبى ﷺ فعل الفريقين.

هناك مثال ثان يبين تباين وتطور التفسيرات، حيث يفرض القرآن على المسلمين ترك تجارتهم وأنً يسعوا إلى صلاة الجمعة عند دخول وقت معين، ليعودوا لمباشرة أعمالهم بعد انقضاء الصلاة؛ وكان مجتمع المدينة بأسره يفعل ذلك على عهد النبى ﷺ .

لكن باتساع المجتمع وانتشار الإسلام فى بلاد ومجتمعات غير إسلامية، ظهر سؤال حول ما إذا كان هذا الأمر يبطل المعاملات التجارية التى يقوم بها المسلم أثناء وقت صلاة الجمعة أم لا؛ فبينما يفسر أحد المذاهب هذا الأمر القرآنى بتحريم مثل هذه المعاملات التجارية (كما هو الحال الآن فى المملكة العربية السعودية حيث يلزم غلق جميع المتاجر حتى أثناء أداء الصلوات الخمس اليومية)، فإن مذهبًا آخر قد يقول إنه فى حين أن الشخص الذى لا يؤدى صلاة الجمعة يأثم، إلا أن المعاملة التجارية لا تعتبر باطلة. فإذا رفعت قضية أمام محكمة سعودية فى الوقت الحالى تدعى فيها أنك تركت صلاة الجمعة وجلست خلف الباب المغلق الخاص بالمدعى عليه وعقدتما صفقة تنصل منها فيما بعد، فإن القاضى على الأرجح لن يُعجب بنقص دينك، بل ربما ينفر حتى من سماع قضيتك؛ وإذا ما وقفت يومًا ما أمام قاض، تعلم أنه لا تروق له قضيتك، فإنه على الأرجح لن يكون حذرًا فيما ينطق من حكم. إن أقرب نظير لهذا فى أمريكا هو إبرام صفقة يوم الأحد، مخالفًا بذلك لـ«القانون الأزرق» الذى يحرم البيع فى يوم

الأحد، إلا إذا كان القانون قد نص قائلاً: «اترك تجارتك وأقم القداس» وبعده يمكنك أن تعود لعقد الصفقات.

بذلك نرى تطور المسائل الاجتماعية التى يمكن تفسيرها بأكثر من طريقة، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ظهور عدد من المذاهب التى تعتبر كل منها بوجه عام آراء المذاهب الأخرى صحيحة ولكنها أقل تفضيلاً من آرائها[٣٤].

إن معظم المسائل الخاصة التى نص عليها القرآن والسنة هى قضايا واضحة، ولكن وجب على المسلمين فى مجالات أخرى بذل جهد حقيقى من أجل الوقوف على ما هو حلال أو حرام شرعًا؛ وما يتم إقراره فى النهاية على أنه موافق للشرع، يعتبر شرعيًا وهى الكلمة التى أخطأ المسلمون فهمها على أنها ما نفس ما يطلبه الله بالضرورة.

لتوضيح كيف تختلط هذه النقطة على المسلمين بسهولة، دعونا نقول إنه تم وضع قانون بموجب المصلحة لا يسمح لسائقى السيارات بسرعة تتجاوز خمسة وخمسين ميلاً فى الساعة؛ وذلك من أجل تحقيق السلامة. ويكون هذا القانون شرعيًا لتوافقه مع الكتاب والسنة حيث ينبثق من الأخلاق التى يدعو إليها القرآن والتى تقدر صيانة النفس البشرية؛ ومن ثم، من الممكن أن يصدر فقيه مسلم فتوى تقضى بشرعية هذا القانون، ولكن لا يعنى هذا أن مخالفة هذا القانون تعتبر إثمًا؛ وهنا تختلط الأمور على بعض المسلمين؛ لأن القوانين الشرعية ليست جميعها قوانين قرآنية، على الرغم من أن جميع القوانين القرآنية هى قوانين شرعية. وفى واقع الأمر، قام فقهاء المسلمين على مر أربعة عشر قرنا وعبر أكثر من خمسين بلدًا بوضع مجموعة كاملة من أحكام الشريعة ليست فى القرآن ولا فى السنة.

ربما كان من اليسير فهم المثال سابق الذكر، ولكن دعونا نبحث مثالاً آخر؛ فبينما صرح القرآن بحرمة شرب الخمر (شاملة كل المسكرات)، لم يفرض القرآن ولا النبى ﷺ أى عقوبة لارتكاب هذا الإثم. ولكن فى خلافة عمر رضي الله عنه (الذى تولى الحكم فيما بين ٦٣٤ إلى ٦٤٤م)، حدث أن مسلمًا مخمورًا تلفظ بصوت عال بكلمات شهر بها ببعض أفراد المجتمع فى شوارع المدينة، فظهرت الحاجة إلى وقف هذا الجرم، فعقد عمر رضي الله عنه جلسة حضرها ذوو الخبرة، وأوصى فيها على رضي الله عنه، الذى أصبح الخليفة الرابع، بجلد المذنب أربعين جلدة، وكانت هذه عقوبة التشهير.

قضت هذه العقوبة بشكل فعال على ألفاظ التشهير التى تنجم عن السكر، ولكنها أصبحت بعد ذلك عقوبة الشريعة على إثم شارب الخمر. دعونا نتخيل إذا ما طلب من قاض مسلم فى بيشاور الحكم على مخمور وقع فى غيبوبة على جانب الطريق لكنه لم يشهر بأحد ولم يرتكب جرمًا آخر. فإذا بحث القاضى فى كتبه وقرأ أن الشريعة «تفرض عقوبة الجلد بأربعين جلدة على شارب الخمر» ولم يكن عالمًا بتاريخ هذا الحكم ولم يضعه فى اعتباره، فماذا تظن أنه فاعل؟.

حرمت المحرمات لأن أنفسنا تميل إليها؛ فلم يحرم علينا الله سبحانه وتعالى أكل عش الغراب السام والأشواك لعدم وجود ضرورة لذلك؛ لأننا نعلم أنها ضارة. ولكن هناك أمورًا ضارة لنا وللمجتمع لكن نشتهيها بشراهة؛ فكم منا يستطيع مقاومة إلقاء نظرة سريعة على صحيفة ناشونال إنكويرر التى تنشر الشائعات أثناء الانتظار عند طاولة دفع الحساب فى متجر البقالة؟ وكم من الناس يجدون طرقًا غير شرعية لتحويل أموال إلى أرصدتهم؟ خاض الناس اختبارات ناجمة عن حب الشائعات والسرقة والزنا بل والقتل ـ وهذا هو السبب فى أن الأعمال التى تضر المجتمع محرمة.

وعلى الرغم من تحريم الآثام، إلا أن مبدأ الضرورة يجيز رفع هذا التحريم لفترة مؤقتة ومحددة؛ فعلى سبيل المثال، فإنه على الرغم من تحريم القتل صراحة، إلا أنه إذا اعتدى مغتصب على امرأة فقتلته دفاعًا عن نفسها، فإننا نطلق على ذلك قتلاً مبررًا. كذلك فإنه مع أن تناول الكحول محرم، إلا أنه يجوز شرب عقار نيكيل والذى يتكون ثلثه من الكحول لتخفيف آثار البرد وذلك للضرورة، لكن هذا يتوقف على الشفاء من البرد، فبمجرد الشفاء، يزول العذر.

كما رأينا فى الفصل السابق، فقد حدد الفقهاء المسلمون خمسة مقاصد أو حقوق رئيسية يجب على الشريعة صيانتها وهى: النفس والدين والمال والنسل والعقل[٣٥]، فإذا كان تطبيق قانون معين يهدد أيا من هذه المقاصد، فيجوز تعليقه مؤقتًا. ومن هذا المنطلق، عندما منعت الشرطة الدينية (المطوعون) التلميذات من الهروب من حريق شب بالمدرسة لعدم ارتدائهن الحجاب، فإن رجال الشرطة خالفوا بذلك جوهر قيم الشريعة. هذا، وفى الجوهر نسى بعض المسلمين اليوم مبدأ من مبادئ الشريعة الرئيسية وهو ـ كما ذكر فى تعاليم المسيح عيسى عليه السلام ـ أن الشرع قد جاء لصالح الإنسان وليس العكس.

ختامًا، هناك عدة تفسيرات لإباحة بعض فقهاء المسلمين للتفجيرات الانتحارية؛ فقد وضع كثيرون من هؤلاء الفقهاء فرقًا عمليّا بين الانتحار والشهادة، ويرى هذا الرأى أنه نظرًا لأن الفلسطينيين ضحايا للاحتلال الإسرائيلى، وأنهم قد عانوا من المستوطنات غير الشرعية وضياع بيوتهم وأراضيهم، فإن لهم الحق بموجب الشريعة الإسلامية فى الدفاع عن أنفسهم عسكريّا. علاوة على ذلك، فمن منطلق أن الفلسطينيين ليس لديهم قوة عسكرية تقليدية يدافعون بها عن أنفسهم، فقد استخدم هؤلاء الفقهاء مبدأ الضرورة لإباحة التفجيرات الانتحارية (العمليات الاستشهادية) ضد أهداف إسرائيلية؛ وتلقى العمليات الانتحارية ـ التى يعتبر حكمها مشكلة من الناحية الدينية ـ ترحيبًا فى الأوساط الفلسطينية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لجذب أنظار العالم لمحنتهم.

المنظور الاجتماعى للتفجيرات الانتحارية

تعد التفجيرات الانتحارية ظاهرة مأساوية تؤثر فينا جميعًا حيث تودى بحياة أعداد مرعبة من الأبرياء، كما تعكس مدى الإحباط واليأس لدى الضالعين فيها، وهى ظاهرة لا يقبلها أى مجتمع متحضر سواء أكان فى العالم الإسلامى أو الغرب، وإذ يتطلب حل أى مشكلة فهمها، فإنه لحل مشكلة التفجيرات الانتحارية يجب أن نفهم البعد النفسى والاجتماعى وحتى البيولوچى ونحن نفحص دوافعها الأساسية.

يوضح عالم الاجتماع إميل دركهايم فى مؤلفه الشهير **«الانتحار»** مجموعة هامة من الملاحظات عن الانتحار. وأشهر نتائج دركهايم المناقضة للبديهة هى أن **معدل الانتحار ثابت فى أى مجتمع معين**؛ فالانتحار دالة لقضايا جماعية أو اجتماعية وليس قضايا فردية، ويمكن تفسير المعدل العام للانتحار اجتماعيّا وليس فرديّا؛ ومن الصعب تحديد الأسباب الفردية للانتحار؛ لأن من ينجحون فيه لا يعودون معنا ليفسروا لنا أعمالهم، ولا نستطيع سوى أن نعرف هذه الأسباب من الذين حاولوا الانتحار ولكنهم فشلوا، أو من الذين انتحروا وخلفوا وراءهم تفسيرات تفصيلية(٣٦).

وجد دركهايم أن الانتحار أقل ارتباطًا بالظواهر الفردية عن الظواهر الاجتماعية، مثل الأسرة والمجتمع السياسى والاقتصادى والجماعة الدينية، كما أن هذه تقترن فى

إطار مجتمع معين بالميل الجماعى إلى الانتحار؛ حيث إن «معدل قتل النفس ثابت تمامًا فى كل مجتمع طالما تماثلت ظروف الوجود الأساسية . . . وهذا الميل حقيقة ـ فى حد ذاتها ـ خارجة عن الشخص وتمارس تأثيرًا قسريًا عليه»[٣٧].

يقسم دركهايم المنتحرين إلى ثلاثة أصناف:

١ ـ عندما يندمج الأشخاص بشكل صارم فى مجتمعهم وتحكم حياتهم العادات والتقاليد بقسوة، ربما يكون **انتحارًا متسمًا بالإيثار**؛ وفى هذه الحالة ربما يفقد الشخص حياته أو حياتها بسبب وصايا سامية ـ سواء كانت متعلقة بالتضحية الدينية أو بالولاء السياسى الأعمى[٣٨]، وهنا يضحى الشخص بنفسه من أجل المجتمع.

٢ ـ ونقيض الحالة الأولى هو **الانتحار الأنانى** الناجم عن نقص اندماج الشخص فى المجتمع، وهذا يحدث عندما يترك الفرد ـ الذى لا تحكمه العادات والتقاليد ـ لموارده فى ظل وجود دعم قليل من الأسرة أو المجتمع؛ ويندر هذا النمط من الانتحار فى الثقافات التى تدمج الشخص فى الحياة الجماعية بصورة وثيقة؛ فإذا كان الشخص فى الحالة الأولى يفرط فى الاندماج فى المجتمع بشكل مبالغ فيه، فإن الشخص فى الحالة الثانية يعانى من نقص فى الاندماج فى المجتمع[٣٩].

٣ ـ **الانتحار الانعزالى**، ويحدث عندما يشعر الشخص بالاغتراب التام عن المجتمع لحدوث انهيار مفاجئ فى الاستقرار الاجتماعى ومعاييره، وفى هذه الحالة، نلاحظ أن المجتمع كان ينظم احتياجات الشخص ويشبعها فى الماضى، لكن شيئًا ما أحدث اضطرابًا أساسيًا فى هذا النظام مسببًا حالة من الغربة النفسية. ومثال ذلك، هبوط مفاجئ لثروة على امرأة لكنها لا تتمكن من مسايرة فرصها الجديدة، أو سجين يحصل على إطلاق سراحه. بعد أن قضى ثلاثين عامًا فى حياة تدور فى إطار اجتماعى مرتب داخل جدران السجن، فيعجز عن التعامل مع حياة الحرية.

إن المعتقدات والممارسات الاجتماعية الشائعة التى تدعم حياة الشخص تجعله تجسيدًا لما يسميه دركهايم «بالضمير الجماعى»؛ والانتحار الانعزالى «هو انعكاس للمجتمع الذى يؤثر على الشخص؛ ففى المجتمعات المركبة، يصبح بعض الأشخاص معتمدين بشكل كبير على التركيب الاجتماعى التقليدى الذى يعيشون فيه؛ وعندما

يتعرض هذا التركيب لقلقلة جراء حدوث أزمة، فإن الانعزال ربما يبرز نفسه فى تزايد معدل الانتحار، «وحيثما يتزايد معدل الانتحار بشكل سريع، فإن ذلك يمثل عرضًا من أعراض انهيار الضمير الجماعى وخللاً أساسيًا فى النسيج الاجتماعى»[٤٠].

يؤكد دركهايم أن الأشكال الفردية للانتحار يمكن أن تُظهر أنماطًا مختلطة مثل الانتحار الأنانى الانعزالى، والانتحار الإيثارى الانعزالى، والانتحار الأنانى الإيثارى؛ ويعقب جورج سمبسون محرر كتاب دركهايم قائلاً: «إن الرأى الأوسع قبولاً اليوم فى التحليل النفسى هو أن الانتحار غالبًا ما يكون فى شكل «إحلال»، بمعنى أن الرغبة فى قتل من أصاب الشخص بالإحباط ترتد على الشخص نفسه». ففى حالة الانتحار الانعزالى، «يُنزل الشخص على نفسه نتيجة الإحباط والغضب الذى سببه التفكك المتصور فى النسيج الاجتماعى لعالمه».

ومن الجدير بالملاحظة أن المجتمعات مرتفعة الدخل لديها معدلات عالية للانتحار، وهذا يتفق مع حقيقة أن الانتحاريين الذين قادوا الطائرات تجاه مركز التجارة العالمى والبنتاجون، على سبيل المثال، ينتمون إلى أسر غنية نسبيًا؛ ويشرح دركهايم أن: «الذين يعانون أكثر ليسوا هم من يقتلون أنفسهم... فما أسهل أن تُرفض الحياة فى الوقت وبين طبقات المجتمع التى تكون فيها الحياة أقل قسوة»[٤١].

يشير دركهايم أيضًا إلى أن أى شىء يمكن أن يستخدم كفرصة مواتية للانتحار[٤٢]. وتعكس الخبرات الخاصة التى دائمًا ما يعتقد أنها أسباب للانتحار الاستعداد الأخلاقى للضحية الذى يعكس هو نفسه الحالة الأخلاقية للمجتمع؛ ويؤكد دركهايم أن الشخص ربما يشعر بالحزن ولكن هذا الحزن لا ينشأ من واقعة بعينها، ولكن من الجماعة التى ينتمى إليها الشخص؛ كما اكتشف دركهايم نقطة ذات أهمية خاصة وهى أن «التعليم أو النصح أو القمع لا يمكنه وقف الانتحار فى منحناه الصاعد... لذلك فإن كل تدابير التحسين يجب أن توجه إلى مسألة التركيب الاجتماعى فى المقام الأول».

وبتطبيق آراء دركهايم المتبصرة على ظاهرة التفجيرات الانتحارية التى ترتكب باسم الإسلام ـ وخصوصًا التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل، وتفجيرات الحادى عشر من سبتمبر، والتفجيرات التى وقعت فى كل من السعودية والمغرب وكينيا والعراق ـ يمكن أن نستنتج ما يلى:

يرى منفذو العمليات الانتحارية العزم الواعى الذى يختبرونه لديهم بأنه نوع من الإيثار المفرط، حيث يشعرون بأنهم سيضحون بأنفسهم من أجل قضية ستجعلهم أبطالاً فى مجتمعهم، مثلهم مثل طيارى الكاميكازى اليابانيين الذين كانوا يفجرون أنفسهم فى الحرب العالمية الثانية، وحركة نمور التاميل فى سرى لانكا. ولكن يغذى هذا العزم الواعى فى الوقت نفسه وعلى المستوى أعمق، انعزال شديد ـ شعور قوى بالغربة سببه صدع غائر فى المجتمع والثقافة التقليديين. وبملاحظة أن العمليات الانتحارية لطيارى الكاميكازى ونمور التاميل كانت تتم عندما كان اليابانيون ونمور التاميل يخسرون حروبهم، يمكن أن نلحظ أيضًا أن العمليات الانتحارية لا تنبع من شعور جماعى بالنجاح.

يوضح روبرت باب عالم السياسة، الذى درس الإرهاب الانتحارى فى الفترة بين عام ١٩٨٠م وعام ٢٠٠١م، أن: «الدين ليس هو القوة التى تقف خلف الإرهاب الانتحارى»، كما يضيف أن «البيانات تظهر وجود علاقة ضعيفة بين الإرهاب الانتحارى والأصولية الإسلامية أو أى دين بالنسبة إلى هذه المسألة»، ويضيف أن الجماعة المسئولة عن أعلى نسبة ٤٠ فى المائة من إجمالى الهجمات الانتحارية هى نمور التاميل فى سرى لانكا وهى جماعة معارضة بشده للدين؛ لكنه يشير إلى أن كل الحملات الإرهابية الانتحارية ما هى إلا «حملات سياسية وعسكرية متماسكة» غايتها المشتركة هى هدف خاص واستراتيچى، أعنى إجبار القوات العسكرية على الانسحاب من أوطانهم، ومن النادر أن يكون السبب الرئيسى لهذه العملية هو الدين، على الرغم من استخدامه كوسيلة فى التجنيد، كما يمكن توظيفه لخدمة هدف إستراتيچى أوسع؛ «فمن لبنان إلى إسرائيل وسرى لانكا وكشمير والشيشان» كان الهدف هو «إقامة أو الحفاظ على حق تقرير المصير السياسى»[٤٣].

إن فقهاء المسلمين القائلين بجواز التفجيرات الانتحارية، مطلقين عليها اسم العمليات الاستشهادية، قد فرقوا فى الواقع بين الانتحار الإيثارى والأشكال الأخرى للانتحار، دون أن يدروا بأطروحات دركهايم، وقضوا بأنها تضحية مبررة من أجل الخير العظيم لمجتمعهم.

هكذا تكون التفجيرات الانتحارية التى تُنفذ باسم الإسلام ظاهرة **اجتماعية سياسية** وليست عقائدية؛ إن اتخاذ الدين كهوية للجماعة يوفر أساسًا لإصدار بيان الضمير الجماعى للمجتمع المسلم؛ حيث إن الانعزال الجماعى بمثابة صرخة للتصحيح، وبيان أن الضمير الجماعى للمجتمع المسلم قد تعطل، وأن الصدع الأساسى يوجد فى النسيج الاجتماعى الحالى؛ لذا فإن أعمال الانتحاريين، التى تعبر للوهلة الأولى عن المزاج أو التعصب الشخصى فقط، تعد حقّا تعبيرًا خارجيّا عن القلق الاجتماعى المترسخ الجذور.

يمد المجتمع المسلم الشاعر بالظلم والألم يده فى صورة جماعية إلى من ـ وفقًا للغة دركهايم ـ يراهم سبب الألم. وحيث إن منفذى العمليات الانتحارية لديهم بصفة عامة مستوى أعلى من المتوسط من التعليم وسبل الرفاهية مقارنة ببقية المجتمع المسلم، فلربما تكون رغبتهم فى الانتحار تعويضًا جزئيّا لشعورهم بالذنب تجاه أوضاعهم أو بدافع الخلل الموجود فى مجتمعهم. أى أنهم ـ باستعمال اللغة المسيحية ـ يقدمون أنفسهم فداءً لخطايا مجتمعهم وخطايا من يعتبرونهم يعملون ضد صالح مجتمعهم على حد سواء. إن التفجيرات الانتحارية التى تنفذ باسم الإسلام[٤٤] ما هى إلا تعبير عن غضب الضمير الإسلامى الجماعى تجاه من ينظر إليهم على أنهم يحبطون الطموحات السياسية للمجتمع المسلم ويزيدون سوء الجراح والإحباطات النفسية القديمة ـ تلك الإحباطات والجراح التى تلقى بظلالها على أى شىء يمكن أن تقدمه الحياة فى الوقت الحالى.

وإننى كشخص قدم العون لأناس فى أوقات الشدة مثل أم حزنت على فقد طفلها أو على فقد حملها، أو صديق يعانى من مرض النهاية وألم جسدى يستحيل علاجه، فإننى اكتشفت أن الأشخاص فى مثل هذه الحالات من الاكتئاب واليأس يعجزون عن إيجاد معنى لحيواتهم وحرياتهم؛ فيمكن أن يشعروا بالتعاسة لدرجة أنهم لا يستطيعون تقدير حرياتهم ولا الخيارات المتبقية أمامهم، وفى هذه الحالة، ربما يفكرون وحتى يحاولون إنهاء حياتهم؛ ويمكن لمثل هذا اليأس أن يصيب المجتمعات والأفراد أيضًا؛ فالأمريكيون لديهم تسمية لاذعة لعملية الانتحار هى «شطب الاسم» للخروج من فندق الحياة.

يجب أن يعالج أى حل طويل المدى لمشكلة التفجيرات الانتحارية الألم واليأس الذى يشعر به الكثيرون فى المجتمع المسلم، ويتطلب تخفيف هذا الألم البحث فى القضايا الاجتماعية التى تساهم فيه، كما يجب أن نعالج تلك الجوانب التى تغذى هذه الظاهرة فى المجتمع المسلم، وأن نأخذ فى الاعتبار إحساس الإسلام الشديد بشعور العدالة الاجتماعية، وهو إحساس له تأثير قوى على نفسية المسلمين والمجتمع المسلم ككل.

وهنا يكمن الأمل؛ حيث يمكن تصحيح الظلم الاجتماعى وإصلاح تمزقات النسيج الاجتماعى ومعاجة العزلة الجماعية الذى تغذى العمليات الانتحارية. ولتحقيق ذلك نحتاج إلى أمرين هما: فهم عميق وشامل للأمراض الاجتماعية الرئيسية، ونهج فائق المهارة والحساسية لعلاجها. ويتطلب الأمر الأخير، من بين أمور أخرى، أن يعمل العالمان الغربى والإسلامى معًا لإيجاد سبل لتحسين حياة الأفراد عن طريق فهم المبادئ الرئيسية للحكم القائم على المشاركة فى المجتمعات الإسلامية، ويتطلب هذا الجهد فى الأساس حلاّ لقضية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى؛ لأن هذا الصراع أصبح بالنسبة للملايين من المسلمين تعبيراً مجازيّا عن قدر كبير من الأمور السيئة بين العالمين الإسلامى والغربى.

قد لا يكون حل الصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى مستحيلاً كما يبدو؛ حيث يتفق المعتدلون من الجانبين فعلاً على بعض المبادئ الرئيسية، إن لم يكن كلها، والتى سيتم دمجها فى التسوية النهائية متى تم التوصل إليها؛ والأهم هو أن استطلاعات الرأى توضح أن الغالبية العظمى من طرفى الصراع يمكنهم أن يقبلوا هذه المبادئ إذا أدت إلى سلام عادل وأمن دائم(٤٥).

ختامًا، فإن القضاء على ظاهرة التفجيرات الانتحارية يقتضى معالجة أسبابها الاجتماعية الرئيسية، وهذا الجهد لن يكون سهلاً ولا مستحيلاً ـ ولكنه ضرورى للغاية لمستقبل عالمنا، وسوف أقدم أفكاراً محددة فى الفصول اللاحقة يمكنها المساعدة فى تحقيق هذا الهدف.

مصطلح «غير دستورى» بالنسبة للأمريكيين
يساوى «غير إسلامى» بالنسبة للمسلمين

يغرس الإسلام شعوراً قويّا بالعدالة الاجتماعية، فعلى المستوى الشخصى، يطمح كل مسلم أن يكون إنسانًا كاملاً؛ وسبيل ذلك هو أن نحاول الاقتداء بالنبى ﷺ قدر المستطاع؛ وعلى المستوى الجماعى، يتطلع الكثيرون فى المجتمع المسلم إلى بناء مجتمع يجسد القيم التى أسسها النبى فى المدينة عندما كان يحكمها بنفسه ﷺ، فكان الخلفاء الأربعة الأوائل بعد النبى أكثر المهتمين بقضية العدالة الاجتماعية، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب، على سبيل المثال، يستطيع أن ينام وفى المدينة امرأة جائعة، كما كان يجوب الطرق بالليل ليتأكد من حماية كل من تحت إمارته من ظلم الجوع (وبهذا قدم شبكته للأمان الاجتماعى). وللأسف عاش المسلمون بعد عهد الخلفاء الراشدين الأربعة فى ظل قدر كبير من الظلم؛ وحيث إن هناك شعورا بأن العدل هو منبت الإسلام، فإن محاولات المسلمين فى الحاضر لإعادة خلق مجتمع عادل غالبًا ما تُصاغ فى إطار إسلامى من حيث المفردات واللغة المستخدمة.

يمكن أن يتحول العقلاء إلى العنف عندما يرون أنه ليس هناك بديل لتصحيح الظلم، فعندما قصفت أمريكا أفغانستان فى رد على هجمات الحادى عشر من سبتمبر، كان هذا عنفًا استهدف من اعتقدت أنهم قد نفذوا أو دعموا هذه الهجمات ضدها ـ أى أن العنف تم تبريره باسم أعمق القيم الأمريكية.

عندما نشعر ـ نحن الأمريكيين ـ بظلم فى قضايانا القومية التى تتضمن قيمنا الديموقراطية الأساسية، فإننا غالبًا ما نقول بدون تفكير إن هذا «غير دستورى»، ورغم أننا قد لا نعرف أى بند من بنود الدستور تم انتهاكه، إلا أننا نشعر بذلك فى أحشائنا، وهكذا فإن هذا القول إنما هو تعبير حدسى؛ لذا يحتاج معظم الأمريكيين إلى مساعدة محامى دستورى لصياغة الحجج القانونية والمنطقية لشعورهم الحدسى بالظلم الواقع.

وبالمثل، عندما يشعر المسلمون بانتهاك الشرع فإنهم يصرخون إن هذا «غير إسلامى»، وربما لا يعرف المسلمون أى آيات القرآن أو تعاليم الرسول هى التى تم مخالفتها، ولكن الفطرة تخبرهم بذلك. عندما يقول المسيحيون إن أمرًا ما «غير

مسيحى»، فإنهم يقصدون أن هذا العمل قاس أو فظ؛ وتشمل عبارة «غير إسلامى» عند المسلمين معانى **«غير دستورى، غير أخلاقى، خاطئ، فظ»**، وتعنى هذه المعانى مجتمعة كلمة «إثم».

عندما نريد فى الولايات المتحدة أن نصحح أى خلل فى نظامنا الديمقراطى، فإننا غالبًا ما نعرض القضية بلغة الدستور؛ لأنه المرجعية العليا التى يمكن أن ندعيها لأنفسنا، وإن التعبير المفضل للأمريكيين عند رؤية خطأ ما هو «يجب أن يكون هناك قانون يمنع هذا» أما لو شعرت بغضب كاف، فسوف تبحث عن قانون كهذا وتستخدمه للثأر. وإذا وجدنا بندًا قانونيًا قائمًا فى صالحنا، ربما نستخدمه لمقاضاة وإثبات أن الشخص الذى ظلمنا قد انتهك القانون أو الدستور، وإذا لم نجد القانون الذى نحتاجه فإننا قد نحاول إيجاده. ونقوم بهذا فى الولايات المتحدة عن طريق إقناع عضو الكونجرس أو السيناتور النائب عنا بسن تشريع لهذا.

ولا يختلف المسلمون فى ذلك ـ إلا أن المرجعية التى يعودون إليها هى مرجعية دينية؛ فعندما يشعر المسلمون بالظلم يندفعون إلى القرآن وكتب الحديث بحثًا عن آية وحديث نبوى يؤيد موقفهم، أو من الأفضل، قد يطلب الشخص من أقرب مفتى إصدار فتوى بخصوص هذا الموضوع. وفى الغالب يجد المسلمون آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تبرر شعورهم بالظلم، فيقولون: «انظر! لدينا قانون يحرم هذا! فقط لو طبقت شريعتنا، فإن إحساسنا بالظلم سوف يجد علاجًا»، وإلا كيف يمكنك أن تحتكم إلى مرجعية أعلى من الله؟.

إن كلمة الشريعة تعنى الطريق، أما المعنى الضمنى المجازى لهذه الكلمة فهو أن حياتنا مثل طريق فى صحراء، والواحة التى نبحث عنها موجودة مع الله. وهكذا فإن الشريعة الإسلامية تركز فى المقام الأول على رحلة الإنسان فى تقربه من خالقنا، ومقصدها هو إقامة روابط ومعالم مرشدة على الطريق بين الله والبشرية؛ حيث إن الشريعة هى جملة الهداية الإلهية وشكلها وتركيبها وبنيانها؛ وهى هامة للمسلمين لأنها الدليل الذى يُحدد من خلاله المسلم ما هو حسن وأخلاقى، إن لكلمة «الشريعة» وقع على أذن المسلم يعنى كل ما هو دستورى وأخلاقى وقويم ورحيم ـ وهى الشروط الضرورية بالنسبة لما يسميه الأمريكيون التماس السعادة، وهذا هو السبب الذى يجعل

العديد من المسلمين يطالبون بإقامة النظم القانونية الوطنية على أساس الشريعة، لأنها المرجعية العليا التى يرجع إليها لتصحيح الأخطاء.

علاوة على ذلك، عندما تدعى أن الله فى جانبك، فإن هذا يمنحك هذا دعمًا شعبيًا، ويصدق ذلك فى كل الثقافات والأديان، كما أنه سبب إضافى يفسر استخدام حركات التحرير السياسى فى العالم الإسلامى لمفردات إسلامية دينية، ويسمون أنفسهم أسماء مثل الجماعة الإسلامية، وحزب الله، وعسكر محمد، . . . وغيره؛ فهم يستخدمون لغة دينية؛ لأنها تبرز بصورة طبيعية مع طرح قضايا العدالة والإنصاف، كما أنها المرادف عند المسلمين لعبارة «ارتداء العلم» باستخدام التعبير الأمريكى.

على الرغم من الأسماء الإسلامية التى تستخدمها جماعات المعارضة العنيفة فى العالم الإسلامى، إلا أن معظم الدعم الذى تحظى به فى الشارع قائم على أمور دنيوية ومادية شعبية. تصف كاريل مورفى مراسلة صحيفة واشنطن بوست فى الشرق الأوسط لعدة سنوات أن الجماعة الإسلامية فى مصر «كانت تعبر عن إحباط وغضب الشعب وكانت تتحدث نيابة عمّن ليس لهم واسطة، تتحدث علنًا عمن تعتقدهم قادة مقصرين وغير مبالين». وذكرت عن أحد سائقى الشاحنات المصريين قوله: «إن الناس لا يتعاطفون مع الجماعة الإسلامية لأنهم يحبونها ولكن لأنهم يكرهون الحكومة. . . إن اليأس هو السبب الحقيقى فى ظهور الجماعة الإسلامية»، فضلاً عن هذا أثمرت مقابلة أخرى أجرتها مع أحد المصريين نفس التحليل السابق عندما قال: «إن جزءًا من أسباب موجة العنف التى تجتاح مصر هو الفقر وقلة الوظائف. . . أى أنها أسباب اقتصادية»، ويضيف قائلاً: «إن الحل ليس فى إلقاء القبض على الناس، ولكن فى إيجاد فرص عمل، ولكن الحكومة لا تهتم بمثل هذه الأمور الخطيرة للغاية»[٤٦].

وباتخاذ مصر كمثال على ما يواجه العالم الإسلامى من تحديات، خصوصًا بالنسبة للفئة العمرية الأقل من الثلاثين والذين يمثلون الغالبية العظمى من السكان، نجد أن معظمهم من العاطلين وشبه العاطلين الذين يعيشون بدون أمل يتراءى لهم فى نهاية النفق؛ وتوضح مورفى أن: **«مشكلة مصر ليست الإرهاب ولكن فى غياب الديمقراطية وغياب احترام المؤسسات القانونية؛ فمثلما أجهض الجنرالات انتخابات**

الجزائر فى عام ١٩٩٢م فى محاولة لمنع الحركة الإسلامية من الفوز بالانتخابات، فإن الحكومة المصرية بعثت برسالة إلى المعارضة الإسلامية المعتدلة مفادها أن صندوق الاقتراع بوابة ضيقة لا يمكنكم عبورها طالما نحن فى السلطة»، وكتبت مورفى فى هامش هذا الاقتباس عبارة شديد الدلالة حين قالت: «إن أيمن الظواهرى الذراع الأيمن لأسامة بن لادن حذر من أن إجهاض الانتخابات الجزائرية عام ١٩٩٢م دليل على أن «الحكومات الغربية وعملاءها» لن يسمحوا للأحزاب الإسلامية بالوصول إلى السلطة من خلال صناديق الاقتراع»[٤٧].

إن جذور ما يسمى بالعنف الإسلامى لا تكمن فى الدين وفى السياسة والاقتصاد الخاصين بالعالم الإسلامى، فبدون مشاركة أكبر فى الحكم وبدون وجود اقتصاد سليم، فإن مشاهد الفقر المدقع وحالة الإحباط الشديدة سوف تستمر مميزة لمساحة كبيرة من بقاع الشرق الأوسط. ويخلق اتحاد هذه الظروف أرضًا خصبة للفلسفات المتطرفة والإرهاب؛ ومما يزيد الأمور سوءا أن الاقتصادات المركزية التى تمتلكها الدولة فى الغالب، تترك معظم المسلمين منعزلين عن الثروة الاقتصادية للأمة. وبهذا فهم يشعرون بالحرمان من حق الحياة والحرية والتماس السعادة المقصورة على ما يبدو على قلة قليلة. يسافر الكثيرون من المسلمين المحرومين من حقوقهم فى بلادهم عبر الصحارى والمحيطات بحثًا عن هذه الحقوق فى الدول الغربية؛ لذلك فمن الطبيعى أن يستخدموا لغة الإسلام فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية ليعبروا عن مآسيهم وطموحاتهم فى الحصول على الحريات والتمكين الاقتصادى من أسباب القوة التى يتمتع بها معظم من يعيشون فى الدول الغربية بشكل روتينى؛ وعندما يبقى الظلم بدون علاج، يصبح الناس فى الغالب مقاتلين.

إن الدرس الحاسم الذى يستفاد من هذه المناقشة هو أن قدرة الجذب الشعبى لدى الجماعات الإسلامية العنيفة له ليست مستمدة من الدين، بل من قدرة تلك الجماعات على استغلال مشاعر الإحباط الشخصية والشعور بالظلم الاجتماعى اللذين يشعر بهما الملايين يوميّا فى المجتمع الإسلامى، فقد أصبحت الجماعات التى تتبنى العنف ماهرة فى الاستفادة من مثل هذه الإحباطات ومن ثم توجيهها بلغة دينية تثير الالتزام الكامل لدى أتباعهم.

لقد استخدم الوعاظ الأمريكيون الأفارقة مفردات دينية لإشعال النضال من أجل الحصول على الحقوق المدنية فى الستينيات والسبعينيات، حيث استخدم القس مارتن لوثر كنج لغة الكتاب المقدس والدستور للحث على تصحيح الظلم الاجتماعى، ولكن مع بدء برامج العمل الإيجابى والحقوق المدنية فى تحسين حياة الأمريكيين الأفارقة ومع بدء تبوئهم مناصب مرموقة مثل العمد ونواب الكونجرس وجنرالات ورجال أعمال وقضاة وحتى وزارة الخارجية، انحسرت عسكرة حركات القوى السوداء[٤٨].

هل الحرب على الإرهاب حرب باردة جديدة؟

إن الولايات المتحدة، طبقًا لمؤسسة «راند»، هى أكثر الدول تعرضا للاستهداف من قبل الإرهابيين منذ ١٩٦٨م، وتقول وحدة مكافحة الإرهاب التابعة للخارجية الأمريكية إن ٤٠ فى المائة من إجمالى العمليات الإرهابية التى حدثت فى العالم خلال فترة التسعينيات كانت ضد مواطنين ومنشآت أمريكية.

يعرف قاموس وبستر الإرهاب على أنه «استخدام الرعب والعنف للتخويف والإخضاع... إلخ، واستعماله خصيصًا كسلاح سياسى أو سياسة تؤدى إلى التخويف والإخضاع»، وقد أضفنا فى القرن الماضى معنى آخر هو «رغبة أحد جانبى الصراع فى قتل المدنيين الأبرياء عشوائيًا ـ غالبًا ما يكون الأطفال من بينهم ـ من الجانب الآخر، ومن ثم يشعر المجتمع الواقع عليه هذا العمل بالإرهاب».

ومن الصعب أن نفهم كيف لمجتمع متحضر أن يتغاضى عن القتل العشوائى للمدنيين والأطفال، ولكن للأسف صارت هذه الممارسة متأصلة فى العالم اليوم، فلماذا؟ لا توجد إجابة سهلة لهذا السؤال المرعب، ولكن يمكننا جمع إيماءات قليلة بدراسة بعض نقاط سوء التفاهم العميقة المتقاطعة بين الثقافات؛ إن الكتابة بموضوعية عن الإرهاب قضية غاية فى الصعوبة؛ لأنه من سابق خبرتى ليس هناك قضية مثلها تثير العواطف على الفور بشكل ملتهب للغاية (وهذا أمرمفهوم)، لكنى أستطيع فقط أن أطلب من قارئى ـ سواء من الثقافة الغربية أم الإسلامية ـ تعليق أحكامه الفورية أثناء قراءة هذا الجزء ومحاولة وضع نفسه مكان شخص من الثقافة الأخرى.

يلاحظ المراقبون المحايدون أن كلمة إرهاب تستخدم دائمًا لوصف أعمال يقوم بها «الجانب الآخر» فى صراع معين، وبالتالى لا نكون «نحن» ـ بحكم التعريف ـ إرهابيين حتى لو استخدمنا وسائل عنيفة للوصول إلى أهدافنا، وحتى لو وقع الأبرياء المدنيون والأطفال قتلى أثناء هذه العملية.

لسوء الحظ تستخدم كلمة الإرهاب ـ التى تحمل معانى كثيرة ـ فى الوقت الحالى بمعنى مختلف فى كل من العالم الإسلامى عنه فى العالم الغربى. فقد علمتنى خبرتى فى مجال حوار الأديان على مدار السنين أنه إذا أردنا أن يتوافر لدينا أدنى أمل فى حل الخلافات الناشئة بسبب الفواصل، خاصة تلك التى بين العالم الإسلامى والغربى، فإنه يتعين علينا أن نعرف هذه المصطلحات بطريقة محايدة، وحينئذ يمكننا البدء فى فهم جانبى الفاصل النفسى ومحاولة رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون؛ وباستخدام المفردات المشتركة بيننا والتى تمكننا من فهم سيكولوچية ووجهة نظر الخصم فى الخلاف، قد نستطيع إيجاد سبل لرأب هذا الصدع.

ففى الغرب، يعرف الإرهاب غالبًا بنية الطرف الفاعل فى إلحاق الأذى بالأبرياء، فلو أن القائم بعملية التفجير أفضى عن عمد بحياة الأبرياء، فهو مذنب بجريمة الإرهاب بما لا شك فيه، وعلى النقيض منذ ذلك، إذا قصفت الولايات المتحدة أو قوات التحالف قنابل خطأ على مبانى فى بغداد (أو أى مدينة أخرى) فقتلت مئات بل آلافًا من الأبرياء من بينهم نساء وأطفال، فنحن نُعرف ذلك على أنه أضرار تبعية وليس إرهابًا، فنحن نحدث هذا الفرق لأننا ليس لدينا النية فى قتل الأبرياء، نحن نأسى على فقد الأبرياء لكننا نعتبر هذا ثمنًا يجب دفعه لبلوغ أهدافنا الكبرى التى قد تكون تخليص العراق من قبضة صدام حسين، على سبيل المثال، أو ضمان أمن الولايات المتحدة من هجمات باستخدام أسلحة الدمار الشامل.

وعلى العكس، فإن العديد من المسلمين فى الشرق الأوسط ينظرون فى المقام الأول إلى نتائج أعمالنا وليس إلى مجرد النية التى نعلنها لتبرير تلك الأعمال. ويرجع ذلك جزئيًا إلى حقيقة أن أعدادًا كبيرة جدًا فى الشرق الأوسط لا يثقُون ببساطة فيما تقوله أمريكا، فعلى سبيل المثال، هناك الكثيرون يعتقدون أن حكومتنا بالغت فى التخويف من أسلحة الدمار الشامل العراقية كذريعة تتيح لنا الغزو وبتحقيق النية الحقيقية

لحكومتنا، وهى إنهاء المهمة التى بدأها جورج بوش الأب فى عام ١٩٩١م ولتعزيز أمن أمريكا فى مجال الطاقة عن طريق فرض الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط، ومن هذا المنظور، فإن معظم العرب يصعب عليهم تقبل أن قتل الآلاف من المدنيين العراقيين ما هو إلا أضرار تبعية، وكانت النتيجة هى تشكل رأى شائع فى الشرق الأوسط بأن الولايات المتحدة مستعدة تمام الاستعداد لقتل الأبرياء المدنيين عندما يتفق ذلك مع الأهداف الأمريكية.

يختلف الإسرائيليون والفلسطينيون عادة حول من هو الجانب الأكثر ارتكابًا للإرهاب، فالإسرائيليون يشيرون بعاطفة كبيرة صادقة إلى الأبرياء الذين راحوا ضحية العمليات الانتحارية التى يقوم بها بعض الفلسطينيين، إن مثل هذه الهجمات تعكس شرّا عظيمًا فى رأى الإسرائيليين، وقد تشدد غالبية الإسرائيليين فى رأيهم بأن السبيل الوحيد لوقف مثل هذه الهجمات هو الرد المتزايد والعنيف على المنظمات التى تدير هذه العمليات الإرهابية، فتقذف الطائرات الحربية والدبابات الإسرائيلية المنازل والمجاورات حيث يُشتبه فى اختفاء أعضاء من حماس بها، وتزيل الجرافات الإسرائيلية منازل فلسطينية وقرى بأكملها بحجة حماية أمن إسرائيل، فى الوقت الذى تم فيه بناء جدران فاصلة عبر المزارع الفلسطينية.

بيد أن منظور الإرهاب مختلف تمامًا فى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى المناطق المحتلة، حيث يُنظر إلى الجماعات التى تحارب الاحتلال الإسرائيلى على أنها تقدم أرواحها فى سبيل قضية الشعب الفلسطينى. وفى حين أن بعض الفلسطينيين ينادون بقوة بأنه ينبغى على المقاتلين الفلسطينيين قصر هذه الهجمات على أهداف إسرائيلية عسكرية داخل وحول المستوطنات اليهودية غير الشرعية، يقبل آخرون موت المدنيين الإسرائيليين فى تل أبيب كثمن لنضال التحرير.

يشير الإسرائيليون إلى القتل المتعمد والمتكرر للأبرياء على أنه دليل واضح على أن الفلسطينيين مذنبون بالإرهاب، ولا يمكن إنكار الصور المرعبة لضحايا هذه التفجيرات، غير أن الفلسطينيين يقولون فى المقابل إن القتلى المدنيين فى جانبهم أكبر بكثير وإن لديهم شعورًا بالغضب مساويًا إزاء الإرهاب الإسرائيلى ضاربين مثالاً بالتورط الإسرائيلى فى مذابح عام ١٩٨٢م والتى راح ضحيتها المئات بل الألوف من

الفلسطينيين فى معسكرات اللاجئين فى صابرا وشاتيلا . وفى غضون ذلك تستمر المذابح على الجانبين .

والحقيقة هى أن قتل الأبرياء إثم دائمًا ـ وليس هناك حجة أو عذر على الإطلاق مهما كان الاعتقاد مبهمًا عميقًا ، يمكن أن يجعله مشروعًا . فليس هناك دين على وجه الأرض يغفر القتل العشوائى للأبرياء ، وليس هناك عقيدة تتسامح فى القتل العشوائى لإخواننا وأخواتنا على هذه الأرض ؛ لذلك نهانا الله سبحانه وتعالى عن قتل بعضنا بعضًا ، فيقول تعالى : ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، كما حرم الله قتل أعضاء المجتمع الذين لا تتوافر لهم سوى أدنى درجات الحماية .

تقف الشريعة الإسلامية بكل وضوح ضد الإرهاب وضد أى نوع من القتل العمد للمدنيين أو أضرار التبعية الشبيهة ، إن جذور الإرهاب لا تنبت من الدين ولكن من السيكولوچية البشرية والكراهية النابعة من الصراع العنيف على السياسة أو السلطة والأصول الاقتصادية مثل الأرض .

يرسل لنا منفذو ما نسميه بالإرهاب الإسلامى فى إحباطهم وغضبهم القول التالى الذى صاغه بنيامين باربر ـ وهو أن : «أبناءكم يرغبون الحياة وأبناءنا مستعدون للموت» . ويجب أن يكون ردنا عليهم هو : «سوف نخلق عالمًا ليس للموت إغراءات فيه لأن نعم الحياة متاحة للجميع»[٤٩] ، يجب أن تكون تلك هى رؤيتنا العالمية ، فإذا نجحنا فى هذا ، فعندئذ نكون قد حققنا النصر فى الحرب على الإرهاب .

أسامة بن لادن : «روبن هود المسلمين» ؟

شاهدت شريط مسجلاً لمقابلة أجريت مع أسامة بن لادن عام ١٩٩٨م برر فيها هجماته ضد الأمريكيين : فقال : إن الرئيس بل كلينتون قام بقصف العراق لصرف الأمريكيين عن مشاكله الشخصية عندما كان فى خضم فضيحة مونيكا لونسكى . واستشهد بن لادن باستطلاع رأى أظهر أن أكثر من ثلثى الشعب الأمريكى ساندوا هذا القصف الذى لم يؤثر على نظام حكم صدام حسين ، ولكنه زاد من معاناة الشعب العراقى حسب قوله ، كما ادعى بن لادن أن أكثر من مليون عراقى ماتوا نتيجة

للعقوبات التى قادتها أمريكا، من بينهم ضحايا السرطان الذى سببه اليورانيوم فى الأسلحة الثاقبة للمدرعات المستخدم فى حرب الخليج الأولى. وأضاف بن لادن أن العقوبات حرمت الشعب العراقى من الحصول على الإمدادات الطبية ودمرت الاقتصاد العراقى، ويستطرد قائلاً: إنه نظرًا لأن الحكومة الأمريكية تجمع أموالها من الضرائب المفروضة على الشعب، فإن دافعى الضرائب الأمريكيين يمولون العسكرية والقنابل الأمريكية. ويجادل بن لادن بأن هذا يعنى أننا نحن الشعب الأمريكى وافقنا على قتل العراقيين الأبرياء، ولأننا دفعنا أموالاً لشراء الأسلحة، فإننا قد شاركنا فى هذه الجريمة ضد الإنسانية والتى تستهدف المسلمين. وهكذا يخلص بن لادن إلى أن قتل المدنيين الأمريكيين كان أمرًا مبررًا. وحاج قائلاً: إن لأمر جوهرى فى أى دولة ديمقراطية أن تكون الحكومة من الشعب وللشعب، وهو ما يعنى أن سياستها تنبع من الشعب وترجع إلى الشعب، ومن ثم فإننا، نحن الأمريكيين، كنا مسئولين عن ذلك شخصيًا.

تبين استطلاعات الرأى فى أجزاء من الشرق الأوسط أن كثيرين من الناس يعتبرون أسامة بن لادن بطريقة ما روبن هود[٥٠] العصر الحديث، وها هى أوجه التشابه التى يرونها: روبن هود كان إيرل مدينة لوكسلى، أى كان نبيلاً، وبن لادن سليل أسرة سعودية ثرية هى آل لادن؛ تخلى روبن هود عن حياته المرفهة لمساندة الملك ريتشارد الذى كان يحارب صلاح الدين الذى اعتبره المسيحيون كافرًا (الحملة الصليبية الثالثة)، وتخلى بن لادن عن حياة الرفاهية لمحاربة الكفار المعادين للدين، الشيوعيين الذين غزوا أفغانستان واحتلوها.

تلقى أسامة بن لادن دعمًا وتدريبًا من كل من الحكومة السعودية والأمريكية. وعندما انسحب الاتحاد السوفيتى من أفغانستان، وعاد بن لادن إلى وطنه تحدث، مثل روبن هود، عن القضايا التى لم يكن الكثيرون من الشباب المسلم راضيًا عنها، فكان كثيرون من الشباب السعودى الذى تلقى تعليمًا عاليًا على وجه الخصوص يرغبون فى أن يكون لهم دور مهم فى صناعة القرار فى بلدهم ومشاركة أوسع فى ثروة وتنمية الوطن. ولو كانت قد سنحت لابن لادن فرصة للترشيح لمنصب سياسى، فربما كان حصل على منصب بالانتخاب، ومن ثم كانت لديه الفرصة ليشغل نفسه فى محاولة لبناء وطنه وتشكيل مساره؛ إن الفرصة المأمونة فى العملية السياسية تمثل رغبة وحاجة

كبيرة فى العديد من الدول الإسلامية، وعرقلة هذه الرغبة واحد من أكبر الأسباب المساهمة فى ظهور العنف فى هذه البلاد.

لقد حرم بن لادن المقاتل من فرصة خدمة وطنه؛ لذا فإنه من الحكمة دائمًا أن نمنح المقاتلين السابقين فرصة الترشيح للمناصب بالانتخاب. وأن نتيح لمن لهم ميول عسكرية فرصة لتقليم أظفارهم بمحاولة بناء شىء فى العالم الحقيقى. بدأ أسامة بن لادن شاعرًا بالإحباط فى التركيز على ما كان يعتقده من عدم مساواة وجور فى المجتمع السعودى، وهو ما لا يخلو منه أى مجتمع فى العالم. ومثلما تحدث روبن هود عن الظلم الذى كان يمارسه الأمير جون وعمدة مدينة نوتنجهام اللذان كانا يصطادان الآيائل ولا يسمحان للفقراء أن يصطادوها، عبر بن لادن عن قضايا مماثلة فى السعودية. ومرة ثانية، فكما عاش روبن مع عصبته السعيدة من الرجال فى غابة شيرود، فإن بن لادن عاش فى الكهوف مع عصبة من الرجال. يمكن أن تكون هذه الصورة فى أى ثقافة صورة بطولية؛ لذا فهى بالنسبة للكثيرين من المحبطين فى العالم الإسلامى صورة أخاذة.

عندما جئت إلى أمريكا فى أواخر الستينيات للالتحاق بجامعة كولومبيا، فتننى أن أرى طلاب الجامعة من الأمريكيين المنتمين لأسر أمريكية ثرية وهم يعلقون لافتات عليها صور تشى غيفارا على حوائط السكن الجامعى الخاص بهم ويرددون أغانى عن الثورة. فقد كان غيفارا ـ وهو مقاتل ثورى وصديق لفيدل كاسترو ـ يمثل شخصية بطولية للعديد من أصدقائى الكولومبيين، حيث كان يرمز لجهود شخص واحد ناضل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية كما يراها؛ فهل نندهش لأن بن لادن ترك انطباعًا مشابه فى أذهان العديد من شباب المسلمين وغير المسلمين فى الوقت الحاضر؟

تحدث بن لادن عن قضايا الشرق الأوسط على نحو جعله يكتسب دعمًا وافرًا، وتوضح دراسة أجراها مركز بيو للأبحاث أن «الغالبية العظمى فى السلطة الفلسطينية وإندونيسيا والأردن ـ وحوالى نصف من يعيشون فى المغرب وباكستان ـ يقولون بأن لديهم بعض الثقة على الأقل فى بن لادن «لفعل الصواب فيما يخص شئون العالم»، كما أنه «لدى ٧١ فى المائة من الفلسطينيين نفس وجهة النظر فى بن لادن»[٥١]؛ ولكن

صعوبة الترشيح لتبوؤ منصب سياسى فى الشرق الأوسط جعل بن لادن يعيش خارج المجتمع ويدعى أنه يمثل كل المسلمين، وهكذا فإن غياب الحكم الديمقراطى يمكن أن يخلق ضغوطًا قد تسبب تصدع هيكل المجتمع ـ إذا لم تعالج. وكما رأينا سابقًا فإن معظم صراعات البشر تنشأ بسبب توزيع السلطة أو الأصول. وفى حالة بن لادن، كان الصراع على السلطة.

نحن نحب سيدة الحرية، لكن يا أمريكا هل تتحدثين إلينا؟

لا نستطيع أن نحل خلافًا مع أزواجنا دون معرفة وجهة نظرهم، وبالمثل، فإن لم نستطع رؤية ما يجعل العالم ككل سواء الإسلامى وغير الإسلامى يغضب منا، فمن المحتمل أن نوسع الفجوة بيننا بدلاً من رأبها. ولأن الولايات المتحدة أقوى مما يتصوره معظم مواطنيها، فإنه ينظر إلينا على أننا مثل رجل شديد الفحولة لم يدرك أن النساء يرونه متبلد الشعور؛ لكننا نتساءل لماذا ينشغل معظم العالم بالأسلوب الذى نستعرض به قوتنا المجردة بطريقة أحادية وبدون الإصغاء إلى أصدقائنا ـ وتصيبنا الدهشة لأننا نكتشف أن معظم العالم يخشانا بالفعل.

تحالفت سياستنا الخارجية لنصف قرن من الزمان مع أنظمة تحرم شعوبها من حقوق الإنسان البسيطة، حتى أننا ساعدنا على إسقاط حكومات ديمقراطية وليدة، وتأتى مساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على تدبير انقلاب عام ١٩٥٣م فى إيران أطاح برئيس الوزراء محمد مصدق وحل محله الشاه مثالاً نموذجيًا لذلك؛ وفى حين أن غالبية الأمريكيين يجهلون هذه الحقبة الضئيلة من التاريخ، إلا أن الإيرانيين يشعرون بالقلق من أن أمريكا قد تطمح إلى إعادة التاريخ بنفس هذه الطريقة. إننا لم نكن جادين فى استخدام قوتنا لتمكين الشعوب الإسلامية من حقوقها.

إن هذا يشبه قولنا: «إننا لدينا كنز خاص ـ وهو مجتمع حر يعبر عن قيم ملة إبراهيم والتى تعتبر مبادؤها جزءًا من عقائدنا الدينية ـ لكنه ليس لكم، إنه للأمريكيين

والأوروبيين وحتى لليابانيين والروس والجنوب إفريقيين فقط، إننا سوف نقترح الديمقراطية على الصين، ولكننا لن نعير أى اهتمام للديموقراطية ولا لحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى. فى حقيقة الأمر، إننا سوف ندعم حتى الحكام الديكتاتوريين الذين يحرمونكم من حقوقكم الإنسانية». ونتيجة لذلك، تعتبر أمريكا فى أذهان الكثيرين فى العالم الإسلامى ممن عاشوا فى ظل أنظمة ديكتاتورية كانت تتلقى دعمًا من الولايات المتحدة شريكًا إما فى خلق المشاكل أو فى إبقاء الوضع الراهن من الظلم؛ وحتى فى المواقف التى لا نعتبر فيها شركاء مباشرين، ينظر إلى أمريكا على أنها مسئولة جزئيّا على الأقل؛ وذلك لأنها القوى العظمى الوحيدة فى العالم والقادرة على تشكيل ما تريد.

ألقى وزير الخارجية الأمريكية كولن باول بعد أسابيع قليلة من أحداث الحادى عشر من سبتمبر بيانًا قويّا خلال كلمته أمام الأمم المتحدة قال فيه: إن الحرب على الإرهاب تتطلب منا دعم الحكومات الديمقراطية، وأضاف قائلاً بأنها حرب على الفقر وانتهاك حقوق الإنسان ونقص التعليم وأمور أخرى تعمل على تخلف العالم الإسلامى.

كتب بنيامين باربر: «إن الذين يعيشون فى العالم الثالث والذين يرحبون، كما يبدو، بمعاناة الأمريكيين هم على أسوأ تقدير خصوم رغم أنفسهم، هدفهم الرئيسى هو إيضاح أنهم يعانون هم أيضًا من العنف حتى لو كان بصورة أقل وضوحًا لكنها تدمر فى سرية أكبر ووقت أطول أكثر مما تدمره تلك العمليات الإرهابية القاتلة. إنهم لا يريدون تخفيف المعاناة الأمريكية لكى يستغلوا الرعب الناتج عنها فى لفت الانتباه إلى معاناتهم... فكل ما يسعون إليه هو العدل وليس الانتقام، إن معركتهم ليست مع الحداثة ولكن مع الأيديولوچية الليبرالية الجديدة العدوانية التى تستمر فى السعى إلى خلق مجتمع السوق العالمى المحقق لمنفعة البعض بدلاً من توفير العدالة للجميع... وهذه خيانة للمبادئ التى يدعى الأمريكيون التمسك بها».

ويضيف قائلاً: «فى النهاية إن النفاق وليس الديمقراطية هو مثار غضبهم»[٥٢].

هناك وفرة من الأمثلة التى توضح اختلاف رؤية كل من الولايات المتحدة والعالم الإسلامى للتاريخ، فعلى سبيل المثال، يؤكد المسلمون أن العقوبات التى فرضتها

الولايات المتحدة على العراق ما بين حرب الخليج الأولى وأواخر التسعينيات أودت بحياة خمسمائة ألف طفل[٥٣]، وبالطبع يرى الأمريكيون الأمر من منظور معاكس تمامًا، فإن صدام حسين، من وجهة النظر الأمريكية، كان يضع مليارات الدولارات الخاصة بالنفط والتى تشرف عليها الأمم المتحدة فى حسابه الخاص فى البنوك فى الوقت الذى كان شعبه يعانى فيه، فلو كان صدام حسين راغبًا بالفعل فى إنهاء العقوبات، لكان كل ما عليه فعله هو الوفاء بعهده والالتزام بالشروط التى وافق عليها عام ١٩٩١م. كانت النتيجة المؤسفة المترتبة على هذا المثال لسوء التواصل هى أن الكثيرين من المسلمين اعتبروا العقوبات المفروضة على العراق مثالاً آخر للظلم الأمريكى، فى الوقت الذى كان الأمريكيون يشعرون فيه بالغضب؛ لأن المسلمين ينتقدونهم بدلاً من انتقاد الديكتاتور الذى قتل الآلاف من شعبه؛ وما يجعل الموقف أكثر تعقيدًا هو أن الولايات المتحدة التى تحالفت لمدة عشرين عامًا مع صدام حسين ودعمته فى حربه ضد إيران، التى تعرض الآن أدلة على إرهاب حكم صدام لشعبه، بل إنها تركته فى السلطة بعد حرب الخليج الأولى، ودفع ثمن هذا الآلاف من العراقيين الذين ماتوا إثر تعرضهم لهجمات بالغازات السامة.

وكما ذكرنا آنفًا، فإن الولايات المتحدة ساعدت على الإطاحة برئيس الوزراء الإيرانى مصدق عام ١٩٥٣م، وعندما أراد الإيرانيون تغيير الشاه بعد حكم دام أكثر من خمسة وعشرين عامًا، ساندته الولايات المتحدة ضد إرادة شعبه حتى النهاية.

نجد موقفًا مماثلاً مع فردناند ماركوس فى الفيلبين الذى كان رجلاً قويًا آخر تحالفت معه الولايات المتحدة، كان الشعب مستاءً من ماركوس أيضًا لدرجة أنهم أرادوا الإطاحة به، وهو ما كان يحظى بدعم الهيئة الدينية الفيلبينية، الكنيسة الكاثوليكية؛ ولكن رد فعل الولايات المتحدة فى الفيلبين كان مختلفًا تمامًا وأكثر حكمة. ففى هذه الحالة، ساعدنا بفعالية على إتمام الانتقال، فطلبنا من ماركوس المجىء والعيش فى هاواى، ثم ساعدنا كورازون أكينو على الوصول للحكم، وبذرنا بذور الحكم الديمقراطى فى الفيلبين.

لو كانت الولايات المتحدة فعلت الأمر نفسه مع الشاه وساعدت آية الله الخمينى للوصول إلى الحكم فى إيران، فلربما كنا حافظنا على علاقات ممتازة مع إيران، ولكان

لسفيرنا على الأرجح مقعد بارز فى الاحتفالات السنوية بيوم الاستقلال. وبدلاً من ذلك كان لزامًا على الولايات المتحدة أن تمارس إسهامها فى تسميتها «الشيطان الأعظم» وسماع الهتافات المستمرة التى تدعو إلى «الموت لأمريكا».

وبينما تحدثت الولايات المتحدة بصوت مرتفع عن انتهاكات حقوق الإنسان فى العالم الشيوعى وفى الصين وفى جنوب إفريقيا التى كانت واقعة تحت طائلة التمييز العنصرى، فإن صمت أمريكا الأصم إزاء مثل هذه الانتهاكات فى العالم الإسلامى كان مؤلمًا بصورة متزايدة للمسلمين لعدة سنوات؛ إن السؤال الذى ينم عن الشكوى الذى يوجهه المسلمون فى الشرق الأوسط لنا نحن المسلمين الأمريكيين هو: «لماذا تنادى الولايات المتحدة الأمريكية بالحكم الديمقراطى فى كل مكان لكنها تقمع الجهود الرامية لتحقيق ذلك فى العالم الإسلامى؟ هل المسلمون ليسوا أهلا للحصول على حقوق الإنسان والديمقراطية؟» إن الشعور السائد فى العالم الإسلامى بأن الولايات المتحدة لا تهتم بمعاناة المسلمين وغير الغربيين يزيد عدم الثقة والعداء العام تجاه العالم الغربى.

تضاف إلى هذا قضايا أخرى مثل التجارة. فقد كان للسياسة المحلية الأمريكية للدعم والدعم الزراعى فى الاتحاد الأوروبى مؤخراً تأثير موهن لمزارعى العالم الثالث. فعلى سبيل المثال، جعل الدعم الأمريكى لمزارعى القطن أسباب العيش مستحيلة بالنسبة لمنتجى وزارعى القطن فى مصر وإفريقيا؛ لأن منتجى القطن من الأمريكيين يمكنهم بيع إنتاجهم بسعر أقل مما يتحمله المزارعون الأفارقة من تكاليف لإنتاجه.

كما أن الصراع العربى الإسرائيلى مصدر كبير إضافى لغضب المسلمين من الولايات المتحدة، وعلى الرغم من وجود عدد من الصراعات فى العالم الإسلامى فى الوقت الحالى مثل الصراع الپاكستانى الهندى على كشمير والصراع الروسى الشيشانى، إلا أن العالم الإسلامى يرى أن الولايات المتحدة وراء استمرار الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. كما أن التناقض بين موقف أمريكا التى تمضى كثيراً من وقتها فى مواقع المتفرجين على الصراع الفلسطينى الإسرائيلى فى حين تندفع إلى إنفاق مئات المليارات من الدولارات على الحرب فى العراق، أحدث قلقًا كبيراً فى كثير من أنحاء العالم العربى، وبالتالى فكما أظهرت استطلاعات الرأى الإقليمية الأخيرة فإن الشعور

بالارتياح إزاء نوايانا والثقة فى نزاهتنا أصبح منخفضًا بشدة، وهذا القلق إزاء النوايا الأمريكية ليس مقصورًا على العالم الإسلامى فحسب، حيث تكشف التقارير الصحفية واستطلاعات الرأى التى تم إجراؤها فى أوروبا وروسيا وأنحاء أخرى من العالم وجود نفس التساؤلات فى أذهان الناس.

لو كانت للولايات المتحدة قد استطاعت إثبات التزامها الحقيقى بتنفيذ خطة ناجحة للسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، خطة عادلة بالنسبة للاحتياجات والطموحات بعيدة المدى لأغلبية كبيرة من الجانبين، لشكل هذا نقطة تحول كبيرة فى موقف العالم الإسلامى تجاهنا. يعتقد الكثيرون على جانبى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى أننا لو استثمرنا نفس الجهد والوقت والموارد المالية التى أنفقت على الحرب فى العراق فى عملية السلام فى الشرق الأوسط، لاستطعنا حل الصراع وإنقاذ حياة عدد غفير من الناس.

إن أهم ما فى الموضوع، بالنسبة لأكثر ما يشغل الولايات المتحدة ـ مثل تعزيز الأمن الأمريكى وتقليل الإرهاب واستقرار الاقتصاد العالمى ـ أن فوائد الاستثمار فى السلام ترجح بشدة فوائد الاستثمار فى الحرب.

إننا لم نحصل على أى احترام!

تجسد الشكوى التى تحمل توقيع الكوميديان رودنى دانجرفيلد جيدًا الطريقة التى يشعر المسلمون بها تجاه معاملة وسائل الإعلام الغربى بوجه عام والإعلام الأمريكى بوجه خاص لهم، نعرف جميعًا كم يكون مزعجًا أن يصر الزوج أو أحد الأبوين على تفسير ما نعنيه بالفعل للآخرين بدلاً مما نقوله. وهذه هى شكوى المسلمين، إذ ينظر المسلمون إلى الإعلام الأمريكى على أنه مثل الزوج أو أحد الأبوين الذى لا يسمع ما يقوله شريكه أو طفله، وبالطبع، فإن الأمريكيين لديهم نفس الشعور إزاء ما يصوره تليفزيون الجزيرة عنهم.

وتبين تجربتى الشخصية مع وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى، خصوصًا منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر، أن إظهار صورة الإسلام والمسلمين كمعتدلين تأتى

فى آخر أولويتها. كانت أول تجربة لى قبل أسابيع قليلة من بدء الولايات المتحدة لحربها على أفغانستان. سعى شيخ مسلم كان يعمل فى القوات المسلحة الأمريكية للحصول على فتوى حول حكم مشاركة المسلمين الذين يؤدون الخدمة العسكرية فى العمليات الحربية ضد أفغانستان؛ حيث إنهم سيحاربون إخوانهم من المسلمين، أصدر الشيخ يوسف القرضاوى الفتوى ووقع عليها أربعة غيره فى ٢٧ سبتمبر عام ٢٠٠١م، قائلاً إنه وفقًا للشريعة الإسلامية فإن أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعد أعمالاً إرهابية، وإن القائمين بها ينبغى أن يقدموا إلى العدالة وبالتالى من واجب السائلين أن يتصرفوا وفق هذا. ولقد دعتنى صحيفة نيويورك تايمز للتعليق على هذه الفتوى، وأوصيت بشدة بنشر هذه الفتوى حيث كان للصحيفة عندئذ ملحق خاص أسمته «أمة تواجه تحديًا»، كانت الفتوى ستعد موضوعًا قيمًا للقراء من قبل قراء التايمز من المسلمين وغير المسلمين على السواء، وكانت ستساعد على تضخيم الصوت المسلم المعتدل. ولكن لسوء الحظ لم تنشر الفتوى، كما دفن المقال الذى يتحدث عنها فى نهاية إحدى الصفحات الداخلية للجريدة.

وكانت آخر تجاربى فى هذا المجال فى ديسمبر ٢٠٠٣ م، فبعد العمل لعدة أشهر فى مبادرة لتشجيع الحكومة والقيادة الأمريكية على القيام بدور أكثر فعالية فى الوساطة للوصول إلى اتفاقية سلام بين إسرائيل وفلسطين، عمل عدد من رجال الدين الأمريكيين الذين يمثلون الديانات الإبراهيمية معًا لحث حكومتنا على أن تكون سباقة بدرجة أكبر وتم تنظيم مقابلة مع صحيفة **واشنطن بوست**، وجرى ترشيحى لأمثل الموقف الإسلامى والانضمام إلى ثلاثة من رجال الدين هم الأب مارك هانسون رئيس الأساقفة فى الكنيسة اللوثرية الإنجيلية فى أمريكا ممثلاً للمسيحية البروتستانتية، ورئيس أساقفة واشنطن الكردينال ثيودور مكاريك ممثلاً للمسيحية الكاثوليكية، والحاخام پول منيتوف نائب الرئيس التنفيذى للمؤتمر المركزى لحاخامات أمريكا ممثلاً لليهودية؛ ولدهشة جميع المشاركين هذا العمل ، أن المقال الذى نشر تحت عنوان «رجال الدين يحثون البيت الأبيض على بذل مزيد من الجهد من أجل عملية السلام فى الشرق الأوسط»[٥٤] اقتبس تعليقات كل رجال الدين عداى، فهل هناك بعدئذ أى مجال للتعجب من أن يكون الانطباع العام لدى المسلمين هو أن الإعلام الأمريكى لا يهتم

بالاعتراف بالمسلمين كمعتدلين؟ وهل هناك أى عجب من أن يوجه للمسلمين دائمًا تساؤل غاضب يقول «أين الصوت الإسلامى المعتدل؟».

يذكرنا الراحل إدوارد سعيد (وهو مسيحى أسقفى عربى وليس مسلمًا)، فى ملاحظاته الثاقبة، أن دراسة المجتمعات الإنسانية ليست كدراسة الجمادات[٥٥]. فالناس تستجيب دائمًا للأسلوب الذى يعاملون به ويُنظر إليهم به، ولقد دأب العالم الغربى لفترة طويلة على ازدراء العالم العربى (الذى يمثل المسيحيون فيه نسبة ١٥ فى المائة) والعالم الإسلامى، فعندما نعامل الناس باحترام فإن رد فعلهم يكون مماثلاً وأما عندما نعاملهم بمهانة فإنهم يستجيبون بنفس الأسلوب.

أصبحت أمريكا القوة العظمى منذ الحرب العالمية الثانية، وشكل النفط والمصالح الاقتصادية والسياسية والأمنية الأخرى التى حددتها الحرب الباردة الانخراط الأمريكى فى العالم الإسلامى، ومنذ وقت الحرب العالمية الثانية اعتلت الولايات المتحدة مكانة السيادة والسلطة فى العالم العربى التى كانت قد احتلتها فرنسا وبريطانيا من قبل، فصارت القوة والهيمنة الأمريكية هى التى تسيطر على العالمين العربى والإسلامى فى الوقت الحاضر، فى حين لا يعلم الأمريكيون سوى القليل عن مشاعر المسلمين والتفاصيل الإنسانية لحياتهم، فتقتصر التغطية الإعلامية الأمريكية فى العالم الإسلامى عادة على النقاط المتقاطعة مع المصالح الأمريكية القوية، وأصبحت وسائل الإعلام عندما تنظر إلى العالم الإسلامى فإنها تراه كشاب ينظر إلى امرأة جذابة يريد منها شيئًا ما.

تبدأ الدراسة الإنسانية لأى موضوع بفكرة أن كل المعلومات ما هى إلا تفسير، وأن هذا التفسير، إذا كان المطلوب فيه أن يكون يقظًا ومؤديًا إلى فهم صحيح للحقيقة، فيجب أن يكون مدركًا لذاته ولأساليبه ولأهدافه، ولكن توجيه كل تفسير للثقافات الأخرى ـ خاصة الإسلام ـ خيار يواجه كل عالم ومفكر «ما إذا كان الفكر يوضع فى خدمة القوة أو فى خدمة النقد والمجتمع والحوار والحس الأخلاقى»[٥٦]. استمرارًا للقياس على علاقة الرجل والمرأة، هل يقترب الرجل من المرأة بنية إقامة علاقات احترام متبادلة أم أنه يريد أن يستغلها لأغراضه الخاصة؟ ففى نظر المسلمين، بدأ العلماء الغربيون مؤخرًا فقط فى البدء فى مخاطبة العالم الإسلامى بنية إجراء حوار قائم على

أساس المساواة والاحترام بدلاً من استخدامه لاستغلاله والإساءة إليه وفرض القوة والسيطرة كما كان الحال فى الماضى.

يجب أن تبدأ أى جهود لرأب الصدع بين أمريكا والعالم الإسلامى بالدافع الصائب؛ وذلك لأن العلاقة بين العالم الغربى والإسلامى متأثرة بشكل كبير بالهيمنة والسلطة الغربية على العالم الإسلامى، ويجب أن يعتمد خيارنا للحوار والقيم الأخلاقية على جهودنا فى التفسير، وكما يشير سعيد، فإن تاريخ معرفة الغرب بالإسلام ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالغزو والسيطرة، ولكن «حان الآن الوقت لقطع هذه الروابط بشكل كامل... وإلا فإننا لن نواجه توترًا مديداً وربما حربًا فحسب، بل سنقدم للعالم الإسلامى، بمجتمعاته ودوله المختلفة، احتمالات لوقوع حروب عديدة ومآسى تفوق الخيال وثورات مدمرة، لن يكون أقلها هو انتصار «إسلام» على أتم الاستعداد للقيام بالدور المعد له عن طريق رد الفعل والتزمت واليأس[٥٧].

أمريكا لديها طابع مميز من التقوقع ربما يكون نتيجة لموقعها الجغرافى وميولها الانعزالية القوية. جاء قريب بعيد لى من مصر فى الستينيات لعمل دراسات الدكتوراه فى جامعة پوردو بولاية إنديانا، وركب ذات مرة حافلة فى مدينة لافاييت وبدأ حديثًا مع راكب أمريكى محلى ودود لاحظ أن ابن عمى يتحدث بلكنة مختلفة، فسأله: «من أين؟»، فأجاب ابن عمى من «الشرق الأوسط». فاندفع قائلاً بحيرة تامة: «الشرق الأوسط؟ أين يقع هذا؟ كل ما أعرفه هو الغرب الأوسط!».

يتضح من هذه القصة أن الإعلام الأمريكى يلعب دورًا واضحًا فى رسم صورة العالم الإسلامى التى تنطبع فى عقول الأمريكيين، وهى لم تكن صورة جميلة. لقد دفعت العامة فى أمريكا وأوروپا اليوم إلى جعل كلمة «إسلام» تشمل كل ما لا يوافق عليه المرء من منظور العقلانية المتحضرة الغربية[٥٨]. إن وصف الدول الموردة للنفط بأنها «تمسك بأمريكا رهينة النفط» طريقة غريبة حقّا لوصف النهم الأمريكى فى الحصول على منتج يملكه الغير[٥٩]، ويشبه هذا فى مسامع المسلمين اتهام ماكدونالدز بجعلنا رهينة شهيتنا لتناول الهمبورجر.

لا يمكن للإعلام الأمريكى أن يفصل نفسه عن الثقافة الأمريكية والاحتياجات السياسية الأمريكية (وهذا يصدق بالنسبة لأى إعلام فى أى بلد فى العالم). حيث تقرر

وسائل الإعلام ما يشكل أخباراً وكيف، وتقوم بذلك طواعية وليس بدافع مؤامرة، بل انبثاقًا من الثقافة، فهى «متجاوبة مع ماهيتنا ورغبتنا»[٦٠]؛ فلو تقبلنا هذا على أنه صحيح، فإنه يشير إلى استنتاج مثير وهو: **« إذا، ومتى دفعت رغبة حقيقية الأمريكيين إلى إقامة علاقات إيجابية بين أمريكا والمسلمين»**، فإن التغطية الإعلامية سوف تتوافق مع هذه الحاجة.

يعتقد المسلمون أن الإعلام الأمريكى مناوئ لهم بوجه خاص؛ وذلك لأنهم يشاهدون صورتهم وقد رسمها غيرهم ممن لم يشاوروهم حول الطريقة التى يرون بها أنفسهم، إن المتخصصين على شاشة التليفزيون الذين يفسرون لعامة الأمريكيين لماذا يتصرف المسلمون بالطريقة التى يتصرفون بها، يجعلون المسلمين يشعرون بأنهم مثل سمكة ذهبية فى حوض تجرى دراستها من خارج الحائط الزجاجى للحوض، ورغم أنهم قد يتوصلون إلى ملاحظات دقيقة وشاملة عن المسلمين وهم داخل حوض السمك، إلا أنهم نادراً ما يسألون أنفسهم ولا يحاولون مطلقًا اكتشاف الشعور الذى ينتاب المسلم أو ما يثيره وجود مراقبين له من مشاعر لديه. ونادراً ما يتساءلون إذا ما كان المسلمون يتصرفون تصرف «المسلمين»، وإذا ما كانت استجابة ما هى استجابة إسلامية تحديداً، أو ما إذا كان السلوك طبيعيّا بالنسبة للبشر، أو أنه نفس رد فعل أى شخص إذا وقع فى نفس الموقف. ويمكن قول الشىء نفسه عن صورة الأمريكيين التى ينقلها الإعلام فى الشرق الأوسط، الصورة التى تحمل القليل من التشابه مع نظرة الأمريكيين لأنفسهم، فعلى سبيل المثال، من الخطأ أن يعتبر العالم الإسلامى كل ما يحدث فى الولايات المتحدة يعكس القيم المسيحية.

يكمن جزء من المشكلة فى عجزنا البشرى عن رؤية الآخر إلا من خلال عدسات خبراتنا الشخصية واختيارنا للغتنا، وعندما نصوغ المشكلة باعتبارها «الغرب ضد الإسلام» فإننا نقارن منطقة من العالم بدين بدلاً من مقارنة أحد الأديان بآخر أو أحد تفسيرات الدين بتفسير آخر. وتكون النتيجة هى أن يجد العالم الإسلامى نفسه فى موقف الدفاع ليس عن طموحاته السياسية والاقتصادية فحسب ولكن بين الحين والآخر عن دور الدين فى المجتمع، وحتى التفسيرات والمواقف المختلفة تجاه الدين فى المجتمع أيضًا.

تؤدى هذه الملاحظة إلى رؤية متبصرة بأنه نظراً لأن الغرب يعتبر معظم ما حققه من تقدم يرجع إلى فصل الدين عن الدولة، فإنه يربط التخلف المستمر للمسلمين بالدين، وهو الإسلام فى هذه الحالة، فتعتبر جميع المشاكل الاجتماعية أو السياسية فى العالم الإسلامى مشكلات دينية وليست سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهكذا يكون لدينا «الأزمة الإسلامية» و«الصحوة الإسلامية» و«الغضب الإسلامى».

هناك مثل أمريكى محلى ينصحنا بعدم انتقاد الآخرين حتى نسير ونحن نلبس حذاءهم مسافة ميل واحد. وما يريده المسلمون من غيرهم هو أن يمشوا هذا الميل الوارد فى المثل وهم يلبسون حذاء المسلمين. فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، شد انتباهى بند فى الأخبار صور عدداً من الأمريكيات اللاتى قررن لبس الحجاب لمدة يوم واحد لمعرفة رد فعل الناس تجاههن، كطريقة للتعرف على التجربة الإسلامية. وفهمت أنها تجربة لكشف الحقيقة بالنسبة لهن. وفى حين بدأ بعضهن فى فهم شعور المسلمات نتيجة تعامل الناس معهن من منطلق الشك أو الخوف، أحبت أخريات ـ اشتركن فى التجربة ـ ما يحققه الزى الإسلامى المحتشم من حمايتهن من أعين الرجال الساعية لمغازلة النساء؛ وفى صورة أخرى، توصلت نساء من غير المسلمات إلى أن تغطية الجسد ـ إذا كانت طواعية تماماً ـ تقوى المرأة من خلال الترفع عن الموضة والمظهر والهيئة، فالنساء بهذا يتم تقديرهن بالمظهر والجسد بناءً على ذكائهن وشخصياتهن وأدائهن.

أكثر ما حظى بتقديرى فى هذه المبادرة هو أنها محاولة لفهم الإسلام من الداخل، إن استمرار وسائل الإعلام الأمريكية فى جعل الأمريكيين يساوون الإسلام بمعاداة أمريكا والإرهاب وأسلوب الحياة الذى يناقض قيمنا المتأصلة سيلحق بأمريكا أذى عظيماً، كذلك تفعل السياسات الأمريكية التى تغذى بناء صورة خاطئة من قبل وسائل الإعلام الإسلامية تجعل من القيم الأمريكية قيماً معادية للإسلام بشكل أساسى.

إن المطلوب الآن هو الوصول لمستوى جديد من حوار الأديان بين وسائل الإعلام فى العالمين الغربى والإسلامى لتغيير الخطاب من «انظروا كيف أنتم سيئون» إلى «انظروا إلى ما يمكن أن نحققه معاً»، وهى لهجة تعلم وتمكن الشعوب وتسمو بها خاصة قادة الرأى من الجانبين، لفهم قضايا الجانب الآخر وللمساعدة فى بناء التجانس بين الطرفين.

هل «الأمة» شعب أم جغرافيا؟

تاريخيّا، حدّد الناس أنفسهم كأمم طبقا للقبيلة واللغة والثقافة والتقاليد والدين. وكانت الجغرافيا جزءًا من هذا التعريف لكن نادرا ما كان التعريف، الرئيسى أو الوحيد. فكان التطور الطبيعى والعضو هو أن الفرد جزء من أسرة ثم من عشيرة ثم من قبيلة ثم من أمة.

بدأ بعض جماعات من الناس، فى مرحلة من المراحل، فى التفكير فى الأمة على أنها تدور فى المقام الأول حول الجغرافيا وطابقوا بين هويتهم والأرض، فلا يمكنك أن تعيش فى إقليم جغرافى بعينه إلا إذا كنت تنتمى إلى جماعة معينة من الناس تشترك فى اللغة والمظهر العرقى والقبيلة وتمتلك تلك الأرض التى تعرف على أنها دولة قومية أو بلد. ويمكنك أن ترى كيف شرعت هذه الفكرة تبذر بذور الصراع بين الناس النابع من الملكية المستندة على أى معلم من معالم تحديد الهوية، والنتيجة الطبيعية هى أنك لن تدرج فى هذه الجماعة إلا إذا تخليت عن جزء من حقوقك الثابتة لصالح هويتك.

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، قسمت بريطانيا وروسيا وفرنسا الإمبراطورية العثمانية وخلقت هويات قومية جديدة على أساس الجغرافيا. وتم تثبيت وضع الحدود الإقليمية، التى كانت متداخلة من قبل، ولم تقم دائمًا على أساس الاختلافات الإقليمية فى الثقافة والدين، ونشأت هويات قومية جديدة وفق الحدود الجغرافية. كما انقسمت بعض المجتمعات التى كانت قائمة منذ أمد بعيد، وبدأت وظلت تغذى المقاومة الضارية للتعددية فى هذه المجتمعات التى كانت تعيش حتى ذلك الوقت معًا فى نفس الموقع الجغرافى.

فعلى سبيل المثال، فى المنطقة التى تجاور فيها إيران كل من آسيا الوسطى والهند، جاور الإيرانيون الذين يتحدثون الفارسية واختلطوا بالسكان المتحدثين باللغة الأوزبكية وبلغة الباشتو. وتم رسم الإقليم المسمى أفغانستان على الخريطة فاصلاً الأوزبكستانيين الموجودين داخل حدوده عن مواطنيهم خارجه أى فى أوزبكستان، كما فصلت الهزارة الشيعة الذين يتحدثون الفارسية عن أقرانهم فى إيران، كذا انفصل الباشتون الذين يتحدثون لغة الباشتو عن الباشتون فى باكستان التى كانت يومًا من الأيام مقاطعة فى

الهند، فكيف يقنع شخص الثلاث جماعات بدمج هوياتهم فى هوية شاملة قائمة على الجغرافيا؟ كيف يتوقع أن يرتبطوا بتقاليدهم الأوزبكستانية والباشتوية والهزارية التى انفصلوا عنها؟

والعراق «أمة» أخرى أوجدتها خطوط قسمت مجتمعات أجزاء منفصلة، وكان الأكراد فى هذه الحالة هم الخاسرون. فبدلاً من إنشاء دولة كردستان، انقسم الأكراد بين العراق وإيران وتركيا، رغم وجود هوية ثقافية وعرقية قوية لهم. ولم يبال مطلقًا المسئولون عن هذا، وهم البريطانيون، بكيف يجد للأكراد الذين فصلتهم حدود صناعية عن شعبهم لأنفسهم هوية وسط الهوية التركية أو العراقية الجديدة التى بها آخرون يتحدثون لغة مختلفة، أو يتبعون مذهبًا مختلفًا هو الشيعة فى حين أنهم سنة، وهذا من بين التحديات التى تواجه الولايات المتحدة اليوم وهم يحاولون صك نظام جديد فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى.

تخيل لو أنه فى نهاية الحرب العالمية الأولى أزالت معاهدة ڤرساى الحدود بين ألمانيا والنمسا من على الخريطة ومنحت ذلك الإقليم إلى البلدان المجاورة، لأصبح قطاع من الألمان جزءًا من پولندا وقطاع آخر جزءًا من فرنسا وقطاع ثالث جزءًا من هولندا وقطاع جزءًا من إيطاليا. ودعنا نمضى أكثر لنفترض أن هذا التقسيم قد أوقع عددًا كبيرًا من الألمان الكاثوليك تحت حكم الهولنديين البروتستانت، وأن الڤاتيكان فى روما أصبح قلقًا إزاء وضع الكاثوليك الذين يعانون جراء «اضطهاد البروتستانت»، فهل سيدعو للدهشة إذا ثارت هذه «الأمة» ذات الهوية التيوتونية القوية عسكريًا فى فرنسا من أجل الحصول على أرض تيوتونية ـ أى أرض ألمانية ـ أو هل تبقى إيطاليا على علاقات متميزة مع الكاثوليك الألمان؟ هذا يشبه انقسام الأكراد بين تركيا والعراق، وانقسام الشيعة بين العراق وإيران وأفغانستان.

إن تقسيم الشعوب التى تشكل جزءًا من أمة ولغة وثقافة واحدة وإكراهها على أن تكون جزءًا من هوية أخرى، أو دمجها لتشكيل هويات جديدة وتوقع أن ترسخ جذورها استنادًا إلى الهوية الجغرافية كان هو سبب الصراع فى العالم الإسلامى.

لقد قامت الفكرة الإسلامية الأصلية للأمة على الشعوب وليس على الجغرافيا، فعندما تم فتح فلسطين ومصر خلال عهد الخليفة الثانى عمر ﷺ لم يمنح المسيحيون

واليهود وغيرهم من أهل الديانات الأخرى حرية العبادة فحسب، بل إن عمر دعا سبعين أسرة يهودية للإقامة فى مدينة القدس التى طرد اليهود منها عام ٧٠ ميلاديّا. من الواضح أن عمر ﷺ لم يفكر أن الجغرافيا تستلزم وحدة الهوية الدينية؛ لأنه أوجد مجتمعًا تعدديّا دينيّا، كذلك لم تصبح مصر مجتمع الأغلبية فيه مسلمة إلا بعد ما يربو على خمسمائة سنة من دخول العرب المسلمين.

ومع تأثر المسلمين فى الفترة بين القرن السابع عشر والتاسع عشر أكثر بالأعراف الأوروبية، تبدأ تبزغ فكرة غير طبيعية لتكوين دولة قومية إسلامية «دار الإسلام» استنادًا إلى الجغرافيا ـ فى الوعى المسلم، وخرجت فى النهاية للوجود فى أغسطس عام ١٩٤٧م فى شبه القارة الهندية عندما تم تقسيم الهند على أساس دينى إلى دولتى الهند وباكستان، وأثناء هذه العملية أزهقت أرواح مليون نسمة، وبدأ صراع لا يزال مستعرًا حتى الآن بين الدولتين اللتين صارتا الآن قوتين نوويتين.

لقد عاش الهندوس والمسلمون فى الهند لقرون من الزمان، أقل انقسامًا بسبب الدين عما أصبحوا عليه بعد قيام دولة باكستان، وكانت تعنى كلمة «هندوسى» حتى منتصف القرن العشرين شخصًا من بلاد «الهند» حتى أن كثيرا من الكتابات والخطب فى شبه القارة الهندية استخدمت مصطلح «هندوسى ـ مسلم» لتعنى المسلم الهندى، غير أن هذا المسمى أصبح الآن مهجورًا. لكن يمكن أن تجد فى الوقت الحالى هندوسًا ومسلمين من غوجارات يتحدثون نفس اللغة وهندوسا ومسلمين كشميريين يتحدثون بنفس اللغة، وما إلى ذلك فى العديد من الولايات والمقاطعات الهندية والپاكستانية. فهل الأفضل للمسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية أن يعيش كل منهما فى دولة قومية دينية أم الأفضل لو استطاعوا الاستمرار فى العيش فى أمة واحدة فى مجتمع متعدد دينيّا كما كان الحال من ذى قبل؟ وأى أنموذج أكثر انسجامًا مع ملة إبراهيم ومؤكدًا للأخلاق الإسلامية والإنسانية؟

وخلق دولة قومية دينية ساهمت فى نشوب صراع عالمى مؤلم، هو خلق دولة إسرائيل فى ١٩٤٨م. كان يعيش اليهود حتى ذاك الوقت فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، من المغرب غربًا إلى أفغانستان وأوزبكستان شرقًا ومن تركيا والبلقان إلى اليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية، وكانت المجتمعات اليهودية

الرئيسية متركزة فى مصر وسوريا والعراق وإيران وتركيا ، مراكز الثقافة الإسلامية خلال المراحل المختلفة من التاريخ الإسلامى . كما جعلت حياتهم فى هذه المناطق لعدة قرون من الزمان يبدون ويتحدثون ويأكلون ، بل وربما يتغنون كباقى من يعيش حولهم ، بيد أن طقوسهم الدينية ظلت يهودية وليست مسيحية أو إسلامية . أوجد قيام دولة إسرائيل وأسلوب قيامها ، أسوأ شقاق بين اليهود والمسلمين الذين كانت تربطهم مع بعضهم البعض حتى ذلك الحين علاقة حميمة عبر معظم فترات تاريخهم .

إن إسرائيل ، فى أعين غير الأوروبيين ، صناعة أوروبية ونتاج ثانوى لفكرة الدولة القومية ، ونتيجة لهذا الصراع وقيام دولة إسرائيل ، تعرض اليهود السفارديم مع الأسف للاضطهاد فى العديد من المجتمعات الإسلامية ، ولم يقتصر ضرر هذا الوضع المؤسف على المجتمعات اليهودية فحسب ، بل امتد أيضًا للمجتمعات الإسلامية التى أصبحت بفقدها للمواطنين اليهود مجتمعات أقل تعددية . تخيل لو أن الغالبية العظمى من اليهود الأمريكيين هاجروا من الولايات المتحدة لإسرائيل عقب عام ١٩٤٨م مباشرة ، ألم تكن أمريكا لتعانى خسارة فادحة؟ فقد شكل الوجود القوى لليهود الأمريكيين تاريخيّا بصورة عميقة الفهم الأمريكى العميق للحريات المدنية ، كما ساهم فى الثقافة الأمريكية والتعليم والاقتصاد الأمريكيين .

كانت مصر أيضًا حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين مجتمعًا تعدديّا ، لا يشتمل على الطوائف القبطية واليهودية القديمة فحسب ، بل وبه كذلك جاليات يونانية وإيطالية كبيرة حافظت على هوياتها الثقافية واللغوية اليونانية والإيطالية ، ولكن لسوء الحظ أمسى هذا التنوع جزءًا من الماضى ؛ نستطيع أن نفهم بشكل أفضل كيف حدث هذا لو افترضنا مرة أخرى أن اليهود الأمريكيين تركوا البلاد فى عام ١٩٤٨م . فهل كانت أمريكا ستظل مجتمعًا تعدديّا أم أن الأخلاق المسيحية المتحزبة بقوة هى التى ستحدد هويتها بشكل أكثر حدة؟ . يرى البعض أنه من الأفضل لليهود والمسلمين أن يعيشوا منفصلين عن بعضهم البعض ، لكنى أعتقد أن نموذج الولايات المتحدة يبين دون أدنى شك أن المجتمعات تغدو أكثر صحة بتطورها تجاه التعددية المتنامية . وتعزز اقتصاداتها من خلال المشاركة المتكافئة لجميع الناس الذين يعيشون معًا على نفس الأرض .

لن أنسى مطلقًا فى عام ١٩٧٣م عندما صاحبت رجل الأعمال المصرى الشهير أحمد أبو شقرة مؤسس سلسلة محلات الكباب ـ وهى بمثابة سلسلة «كولونيل ساندرز» فى الشرق الأوسط ـ بعد تخرجى من الجامعة خلال بحثه عن رفيق طفولته ألبرت مزراحى فى كل أنحاء البلاد. كان أبو شقرة مسلمًا متدينًا، بينما كان مزراحى يهوديًا مصريًا، وأخيرًا التقى الرجلان فى مدينة كانسس، ورحب كل منهما بالآخر بالحب والود ودموع الفرح وكأنهما أخوين التقيا بعد طول فراق. أخبرنى مسلمون فلسطينيون من جيل أبى أنه عندما كانوا أطفالاً اعتاد آباؤهم على توبيخهم إذا لم يقبلوا أيدى الحاخامات، بدافع الاحترام، كما كانوا يفعلون مع الرهبان والأئمة. يأمل الكثيرون أن يرد السلام الحقيقى بين إسرائيل وفلسطين مثل هذا الاحترام المتبادل مرة أخرى؛ ولأن العديد من المسلمين فى العالم الإسلامى لم يعودوا يعيشون من اليهود أو يعرفونهم معرفة شخصية، فهل من العجيب أن يتزايد التوتر بين المجتمعات الدينية على هذا النحو البغيض؟

بالإضافة إلى هذا، فإن الاستعمار الأوروبى، كما ناقشنا فى مقدمة هذا الكتاب، أوجد ما أسماه أستاذ السياسة بجامعة هارڤارد صمويل هنتنجتون «المجتمع الممزق»، وهو مجتمع قاده تقليديون من الناحية العرقية لكنهم ينتمون للشعوب الاستعمارية فكريًا، وهناك مثالان لهذا فى العالم الإسلامى هما كمال أتاتورك فى تركيا والشاه فى إيران. كان أتاتورك جنرالاً تركيًا وبطلاً عسكريًا، أنهى فى عام ١٩٢٤م الخلافة العثمانية التى كان مقرها فى إسطنبول، ولا تزال تداعيات هذه الفاجعة مؤثرة على الكثيرين فى المجتمع الإسلامى، وهذا ما عناه أسامة بن لادن فى أحد أشرطته المسجلة عندما أشار إلى إهانة وقعت منذ ثمانين عامًا، وهى الإشارة التى أربكت العديد من الأمريكيين.

وطبقًا للغة هنتنجتون، فإن أتاتورك والشاه مزق كل منهما مجتمعه، فكانت عقليتهما أوروبية وحاولا تحويل مجتمعاتهما طبقًا للصورة الغربية قسرًا؛ ومع نهاية الاستعمار فى مطلع النصف الأول من القرن العشرين وقيام أنظمة علمانية متشددة فى العواصم الإسلامية الكبرى فى تركيا ومصر وإيران، وجد المسلمون أنفسهم تحت حكم حكام علمانيين غير منتخبين أرغموا شعوبهم على تقليد الغرب، بطريقة سخيفة فى

بعض الأحيان، فأرغم كمال أتاتورك الأتراك على تغيير ملابسهم إلى الملابس الغربية وارتداء القبعة بدلاً من الطربوش، وفى الثلاثينيات، سمح شاه إيران للشرطة باستخدام الحراب لإكراه النساء على خلع الحجاب (الشادور).

ربما يتساءل الأمريكيون لماذا كل هذه الأهمية لهذه النقطة، تذكر أننا فى الولايات المتحدة الأمريكية لا نجبر حتى أطفالنا البتة على ارتداء الزى المدرسى الرسمى فى مدارسنا العامة، كما يتسع لهم صدورنا بكل حب عندما يصرون على إنفاق الكثير من الأموال على شراء الأحذية ذات الماركات المعروفة التى تصدر ومضات. ولكى نفهم ما فعله أتاتورك بإنهائه الخلافة العثمانية، تخيل أن موسولينى قضى على البابوية وحول القاتيكان إلى متحف، كيف يكون شعورك لو كنت كاثوليكيّا؟ تخيل أن رئيسًا أمريكيّا مولعًا بالثقافة الفرنسية أمر الحرس الوطنى أن يجبر النساء الأمريكيات على شواطئ فلوريدا على خلع الجزء العلوى من بدلة السباحة (البيكينى) بداعى «المدنية»، كيف يكون شعورك إذا كنت معمدانيّا أو يهوديّا؟ ألن يعتبر المعمدانيون الجنوبيون هذا بمثابة انزلاق إلى اللاأخلاقية، كما رأى رجال الدين الإيرانيون ذلك فى أفعال الشاه؟

على النقيض من أتاتورك والشاه، كان مهاتما غاندى نموذجًا شهيرًا تربى وسط تقاليد المستعمر لكنه لم يدر ظهره لتقاليد بلاده، فعقب عودته إلى الهند، فعل العكس تمامًا حيث خلع الرداء الغربى وعرف كيف يفصل بين هوية المستعمر وكيف يدافع عن كرامة هويته الوطنية، وجعلها على قدم وساق مع الهوية الأجنبية على نحو حاز على تقدير الناس على الجانبين، كما عارض فكرة تقسيم الهند إلى الهند وباكستان، وهو موقف يتوافق مع ملة إبراهيم؛ كذلك وقف فى وجه الظلم الاجتماعى لنظام الطوائف الهندوسية وعامل المسلمين على أنهم إخوة وأخوات، مرة أخرى فى تناغم مع ملة إبراهيم. فأى هذه النماذج أظهر التاريخ أنها أكثر تجانسًا مع التقاليد والطموحات الوطنية وأكثر إثارة للإعجاب فى نهاية الأمر حتى فى الغرب؟

إن الحقيقة لا تتعلق فقط بالوقائع، ولكن تعتمد أكثر على كيفية إدراكنا لتلك الوقائع حيث إن ما نراه حقيقة يكون فى الغالب هو تحليلنا الخاص للوقائع، الفهم الذى تشكله قيم متأصلة فى اللاوعى لا ننتبه إليها غالبًا. وعادة لا نرى الحقيقة التى يبصرها الجانب الآخر إلا إذا فتح شبيه لها فى بيئتنا الخاصة أعيننا عليها.